محمود كامل

الرجال منافقون

وقصص مصرية أخرى



مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

محمود كامل

الرّجالُ منافِقونُ

وقصص مصرية أخرى

كلمة المؤلف

هذه مجموعة قصص مصرية تعالج لوناً من الألوان الاجتماعية التى تتميز بها الحياة المصرية . أقول « تتميز » بها كطابع محلى يطبعها وقد لا يكون له نظير فى غير مصر . هذا اللون الغريب هو الذى يبدو فى التفاوت الكبير بين الشاب المصرى الذى تلقى تعليمه فى مصر أو فى أوروبا وكثر تردده على نوادى الرياضة . و «صالونات الشاى» . و «علب الليل» و بين الفتاة المصرية الجديدة التى بدأت تتلقى نفس برامج الدراسة التى يتلقاها زميلها كما بدأت تنال ألقاب الجامعة العلمية . وتشق لنفسها طريقاً فى معركة الحياة .

هو تفاوت كبير اختل فيه التوازن بين الاثنين إلى حد اجتماعى مخيف . فالحياة الاجتماعية العصرية السافرة قد مهدت للاثنين أن يتعارفا عن طريق صداقة الأسرتين . أو الدراسة المشتركة فى كلية واحدة . أو الجوار . نخيل إلى الكثيرين أن الفتاة المصرية التى أصبحت تتقن أكثر من لغة أجنبية . وتغشى نوادى الرياضة فى رداء « التنس » الرياضى لتنازل خصماً شاباً . والتى زانت موائد « جروبى » فى « ساعة الشاى » فأصبحت تتناوله فى رفقة من الأهل والأصدقاء وهى تستمع إلى موسيقى «ليست» و «شوبان» وتتذوقها . والتى تخطر أثناء الصيف فى « ثوب البحر » على أفريز «جليم» صباحاً . وترقص مع ابن عم . أو ابن خالة فى « مونسنيور » أو « كارلتون»

مساء — خيل إلى الكثيرين أن هذه الفتاة الجديدة قد تحصنت بعد هذا الانطلاق ضد مغريات الحياة التى يعترضها فيها رجل فى كل برهة . كما تحصنت زميلتها الأوروبية . ولكن فات هؤلاء أن هناك قيوداً اجتماعية عديدة لا زالت تطوق هذه الفتاة الجديدة رغم كل المظهر الذى بدأت تظهر به . وأنه إلى أن تنقرض طبقة الأمهات اللاتى لم يخلعن « البرقع الأبيض » إلا منذ بضعة أعوام . واللاتى لم يسمح لأزواجهن — آباء فتيات اليوم — برؤيتهن إلا ليلة الدخول بهن — إلى أن تنقرض هذه الطبقة ستبقى الفتاة المصرية مشكلة اجتماعيــة . لأن ظل التقاليد القديمة ما زال يرفرف على روحها . وحقيقة تفكيرها . فالمارة فى أرق أحياء القاهرة لا يزالون يشاهدون خادماً سودانياً صغيراً يتبع آنسة ترتدى آخر طراز باريسى . قد تكون من خريجات «لاميرده ديو » أو «الكلية الأمريكية» ولكنها لم تنشأ أو لم تستطع الخروج وحدها . وألسنة الجيران لا زالت تسلق كل فتاة فى الحى تعود فى ساعة متأخرة إلى بيتها حتى لو كانت مصحوبة بأهل أو أقارب . ولا يزال للأخ فى الأسرة المصرية حقوقاً لا تفكر الأخت الصغرى أو الكبرى فى المطالبة بها لأنها تعلم أن فى ذلك قضاء على سمعتها وتهديداً لمستقبلها . ولا تزال آثار الماضى القريب ماثلة فى الكثير من تفاصيل الحياة الاجتماعية العامة . . . « حمام السيدات » فى « كازينو سان ستفانو » . و « غرفة الحريم » فى عربات الترام . و « حفلات السيدات النهارية » فى ملاهى القاهرة الكبرى .

التفاوت الكبير — إذاً — بين الشاب المصرى والفتاة المصرية الجديدة يبدو فى أن الحياة الاجتماعية العصرية قد طعمته — هو — بنوع من النفاق صقلته سهرات الليل مع فتيات الهوى وأحاديث المقاهى مع الأصدقاء ذوى المغامرات الغرامية العديدة و « مقالب » نوادى الألعاب الرياضية . بينما — هى — رغم المظهر العصرى الخارجى لا زالت « شرقية » فى صميم تفكيرها . وميولها . واتجاهاتها النفسية . ومع ذلك فان التطور الاجتماعى يجمع بينهما فى أكثر من مناسبة . وأثر هذا التفاوت بالغ الخطر . لأنه — كما قلت — تتميز به هذه الحلقة من حلقات تاريخنا الاجتماعى . ومن حقه أن يسجل فى أكثر من قصة طويلة . يثبت فيها أن مظاهر الحياة المتفرنجة التى ترى اليوم فى مصر أن تأثرت بها طبيعة الشاب المصرى فان الفتاة المصرية لا تزال بعيدة عنها . بل انها ضحيتها الوحيدة . لأنها تأبى — محقة — أن تسايرها . أو تخضع لاعتباراتها . ومع ذلك فهى تعيش على هامشها . ولذلك لم تنج من شرورها .

اننى أرجو أن تظل فتاتنا الجديدة بمنأى عما انغمس فيه أخوها أوخطيبها لكى تحتفظ على الدوام بذلك الغموض الشرقى الساحر الذى أحاطها منذ القدم كهالة رائعة تستهوى النظرة الشاعرة . ولكننى أوقن بأن من واجب المصلح الاجتماعى أن يلفت النظر إلى أن « الرجل » — وهو لا يزال يتحكم فى أقدار مصر الاجتماعية — يجد من حرية العبث أكثر مما يجب أن

يسمح له به . وأن قيوداً اجتماعية وتشريعية يجب أن نفكر فى وضعها للحد من هذه الحرية الطاغية .

من أجل ذلك وضعت هذا الكتاب . ولكننى أومن — فى غير تواضع — أن كتاباً واحداً لا يكفى . وأن جهوداً أخرى عديدة يجب أن تبذل لتنقية الحياة الاجتماعية العاطفية فى مصر من جرائم النفاق التى تشوبها .


الرجال منافقون

الرجال منافقون

رسالة من فتاة مجهولة

سـيدى

أكتب إليك بعد أن انتهيت من قراءة قصة إنجليزية استعرتها من مكتبة جمعية « الشابات المسيحيات » عنوانها « كل الرجال كذّابون »
All Men are Liars

إنها قصة عادية أثار عنوانها فضولى فطلبتها وقرأتها . قرأت معظم فصولها فى شرفة منزل خالتى بطريق الهرم . إنه طريق حبيب . . . حبيب إلى قلبي و إلى قلوب الكثيرات غيرى . ولعلى لا أغلو إذا قلت إن لهذا الطريق أو — بتعبير أكثر دقة — لهذا الطريق فى أمسياته القمرية ذكرى قريبة أو بعيدة فى قلوب اللاتى غامرن مغامرات غرامية هانئة أو شقية ممن يقرأن قصصك .

إننى لا أريد أن أشير إلى القصة الانجليزية بشىء فقد خُيِّل إلى أن كاتبتها قد أرادت الفوز بلهفة قارئاتها على اقتنائها فعمدت إلى اختيار ذلك العنوان الذى تستريح إليه أرواح النساء !

فأنا فتاة يا سيدى وأنا أعلم أن المرأة — حتى لو كانت سعيدة فى حبها — تشعر براحة خفية عند ما تسمع طعناً وتجريحاً فى الرجال أجمعين !

لنترك تلك القصة إذاً ولنكتف بأنها أثارت فى صدرى طائفة من الذكريات البعيدة عن مأساة حدثت لى تثبت ولا شك بأن الرجل ولد ليكون منافقاً . . وأنه مهما وثق و « ملأ يديه » من وفاء المرأة التى أحبته فإنه لا يستطيع أن يتحرر من الرغبة التى تلح عليه دائماً فى أن يكذب وينافق !

إنك تريد الآن أن تعرف شيئاً عنى . . . إننى فى السادسة والعشرين من عمرى ، كان أبى المرحوم يشغل إحدى وظائف الادارة الكبرى فى الأرياف . وكنت بحكم ذلك أتنقل معه فى عواصم المديريات الكبرى التى كان يؤدى فيها عمله الحكومى . وأنت أدرى بالظروف الاجتماعية التى تحيط بابنة وكيل المديرية أو المدير منذ خمسة نحو عشر عاماً . أيام كانت هيبة الحكومة تتركز فى حاكم المديرية .

كانت تسليتى الوحيدة أن أخرج مع والدتى فى يوم معين من أيام الأسبوع لنرد الزيارة لزوجات القضاة ووكلاء النيابة و بعض كبار موظفى المديرية . وكانت « عربة المدير » تقلنا من « بيت المدير » إلى حيث نريد أن نذهب وقد جلس « شاويش المديرية » بجانب السائق . فإذا وصلنا أسرع فهبط مسرعاً ليفتح الباب فتتقدمنى والدتى وأتبعها أنا وقد أسدلت على وجهى نقاباً كثيفاً يحجب قسماتى ولا يدع لمخلوق فرصة تبينها. ثم يجلس على « الدكة » بجانب بواب المنزل أو خادمه حتى تنتهى الزيارة التى كانت العادة قد جرت على أن تكون قصيرة إلى أقصى حد ممكن فنعود من حيث أتينا بنفس النظام

لم أكن أعرف شيئاً عن الحياة خارج « بيت المدير » الكبير ذى الحديقة الواسعة المطلة على الترعة . بل لم يكن مستطاعاً أن أعرف شيئاً لأن صوت حوافر الجوادين اللذين كانا يجران العربة كان معروفاً لدى أهل البلدة . فلا تكاد الحوافر يرتفع دبيبها حتى تتطلع الأنظار إلى من فيها فإذا رأوا والدتى وأنا إلى جانبها فهموا تواً أن « امرأة المدير » خارجة لترد « الزيارات » . وكان المفروض دائماً أن أطرق إلى الأرض فلا أتلفت إلى أى الجانبين حتى لا أشجع تلك النظرات النهمة التى كانت تصوب إلينا

وهناك تسلية أخرى لا يجب أن أنساها . هى تلك الفرقة المكونة من أطفال ملجأ الأيتام التابع للمجلس البلدى التى كانت تحضر إلى « كشك » حديقة منزلنا ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع لكى تعزف وتوقظ والدى من نومه فى الصباح . كنت أنتظر تلك الفرقة بفارغ الصبر لأنها كانت الشىء الوحيد الذى يخرجنى من نطاق حياتى اليومية المتشابهة المتكررة . ولكننى مع ذلك لم يكن مسموحاً لى أن أهبط إلى الحديقة لكى أتبين وجوه أفرادها . لأننى لما طلبت ذلك لأول مرة بعد أن سمعت صوت الناى وراقنى عزفه الحنون الهادئ وأردت أن أرى وجه صاحبه أجابتنى والدتى وهى تعبس عبوساً خفيفاً

— أية فضيحة ! أتريدين أن تذيع « البلد » أن إبنة المدير تجالس « بتوع المزيكة » ! — فلما قلت لها

— ولكنهم أطفال — أجابتنى وهى تغالب نغمة ساخرة

— لا . إن بينهم شاباً فى العشرين . كيف تجرؤين على النزول والجلوس معه !

ومنذ تلك اللحظة قنعت بالجلوس فى غرفتى التى كانت فروع من « تكعيبة » الكرم تتعانق أمام نوافذها . أستمع من بعيد إلى الموسيقى كلما عزفت فى كشك الحديقة لأن بين أفرادها شاباً لم يكن من اللائق أن يقع بصره على !

— ٢ —

ولكن تلك الحياة تغيرت منذ عشرة أعوام . إذ توفيت والدتى . . . وكنت قد أتممت دراستى بمدارس الراهبات اللاتى يطلق أهل الريف عليهن اسم « السبع بنات » فرأى والدى أن أنتقل إلى القاهرة لأقيم بمنزل خالتى وأتم تعليمى .

وأحسست فجأة أن القيود التى كانت تحيط بى فى « بيت المدير » قد تفككت . وأصبحت أستطيع أن أخرج من بيت خالتى أنجهإليهم لزيارة بنات صديقاتها . كما أصبح لى الحق فى أن أجلس مع فتيات الأسر التى كانت تتزاور معهن نتحدث عن بعض أفلام السينما ونبدى بعض تعليقات صريحة عن طريقة رودلف فالنتينو فى إغراء بطلات قصصه . وعن فتنته فى ملابس « الشيخ » . أو نتناقش فيما إذا كان « دم » يوسف وهبى خفيفاً أو « ثقيلاً » فى دور ارمان دوفال فى مسرحية « غادة الكاميليا » التى كانت تمثل إذ

ذاك بنجاح مستمر على مسرح رمسيس . أو نذكر قامة أحمد علام فى دور الأمير يوسو بوف فى « راسبوتين » ونختلف فيما إذا كان يتكلف هز كتفيه ليبدى عرضهما أو أنها حركة طبيعية لا أثر للكلفة فيها .

أى تغيير . . !

وأخذ خيالى يختزن تلك الألوان الجديدة التى طرأت على

وكنت أجلس أحياناً فى شرفة منزل خالتى أنظر إلى السيارات الصاعدة فى طريق الهرم بعد غروب الشمس وقد جلس خلف عجلة القيادة شاب التصقت به شابة تلتهمه بنظراتها وقد أخذت شفاها تنفرج عن حديث هادئ كسير السيارة لم أكن أسمع منه شيئاً ولكننى لم أكن أجد كبير عناء فى أن أتبين أنه حديث لا شجار فيه ! أو عمدت هى إلى إشعال سيجارة تضطرب بين شفتيها ثم قدمتها له فى حركة رشيقة تفيض دعة وحناناً بيد ومدت يدها الأخرى تنسق بها شعر رأسه الذى عبث به هواء الطريق الحلوى . .

كنت « أشب » فى بادىء الأمر لأدقق النظر جيداً على أجد « شاويش المديرية » جالسا خلف السيارة أو أمامها أو إلى جانبها ولكننى فى كل مرة لم أكن أجد إلا هما . . لا ثالث لهما . . . دائماً اثنين يمران من أمام حديقة المنزل ثم يبتعدان فى هدوء . . وكنت أحياناً أسائل نفسى « كيف سمح أهل هذه الفتاة لها بالخروج مع شاب فى مقتبل العمر ! » ولكننى لم أكن أحظى بجواب أطمئن إليه . ولو أنه كان يخيل إلى أن كل أولئك الفتيات

اللاتى تختنق أجسامهن داخل السيارات المارة ولا تبدو إلا رؤوسهن سعيدات لأن الإبتسامة لم تكن تفارق ثغورهن وهن يعبرن شارع الهرم من أمامى .

إلى أن رأيته . . !

كانت ليلة من ليالى الشتاء . وكنت فى زيارة مع خالتى أنجه هانم لمنزل عبد الحميد بك راشد أحد كبار رجال القضاء المحالين إلى المعاش . ولصاحب المنزل إبنة فى سنى كانت قد نشأت بينى و بينها أواصر صداقة خاصة من كثرة تردد خالتى على منزل والدتها .

ولاحظت فى تلك الليلة أن سميرة إبنة عبد الحميد بك قد أكثرت من الكلام عن شقيقها أحمد . .

وكنت كلما حاولت أن أنقل الحديث إلى موضوع آخر أعادته هى إلى « أبى أحمد » كما اعتادت أن تدعوه . فلما يئست من إثارة إهتمامى أدنت مقعدها منى ثم أمسكت بيدى وشخصت طويلا إلى عينى وقالت فى صوت هامس لم يخل من رجفة .

— أنه لا يستريح إلا إذا ذكر اسمك . وأنت يا علية تتهربين من كل حديث عنه . كم أنت قاسية ! — فالتفت إليها مذعورة ثم سألتها .

— ماذا تقولين ! إننى لم أره بعد ولا أعرف شكله ..

فربتت على ظهرى كأنها تدلل طفلة صغيرة ثم قالت لى وهى تضحك

— لقد رآك هو وأحبك . منذ وقع بصره عليك وهو لا يتعب من تكرار « أين علية ؟ متى ستحضر ؟ متى ستذهبين لزيارة علية ؟ ألم تتحدث

فى التليفون ؟ لم لا تسألين عن علية فقد تكون مريضة ؟ » حتى « سور » أذنى . إننى لم أسمع من قبل عن حب مثل حب « أبى » أحمد لك . .

وعدت أسألها فى سذاجة وأنا أفتح فمى كبلهاء .

— ولم يفعل ذلك ؟

— إسأليه . لقد بلغ من جنونه انه طلبَ من مصلحة الصحة إلغاء نقله إلى أسيوط . مع أن المركز الذى عين مفتشاً لصحته معروف بأنه يدر أرباحاً طائلة على أطبائه . وأنت تعلمين أن أحمد من أنبغ زملائه . كان ثانى « الدبلوم » . وقضى مدة فى « القصر العينى » ثم عين فى أسيوط وقدم الـكثيرون لتهنئته و بدأ يستعد للسفر . واشتركت أنا فى أعداد حقائبه . وفجأة عاد ظهر ذات يوم وأخبرنا أنه طلب من المصلحة إلغاء النقل . . . مجنون !

فاطرقت إلى الأرض برهة ثم سألتها .

— لم ؟

— لأنه ليس من الحـكمة أن يقدم على هذه التضحيات كلها قبل أن يعرف إذا كنت ستبادلينه الحب — ففكرت لحظة ثم سألتها .

— وماذا أفعل ؟

— والله لا أعرف ماذا يجب أن تفعله فتاة فى مثل سننا إذا وجدت شاباً . متعلماً . من أسرة طيبة . يشغل مركزاً محترماً يحبها حتى العبادة ! أنا لا أخفى عنك يا علية إنك لست أول فتاة وقع بصر « أبى » أحمد عليها . . .

لقد رأى هنا عدداً كبيراً من صديقاتى كما أنه يشاهد كل يوم فى عيادته أشكالاً وألواناً . وهو شاب أنيق . وإيراده كبير . كما أننى لا أذكر أن أبى بخل عليه مرة بأى مبلغ طلبه منه . ومع ذلك فأنه ظل مستقيماً إستقامة تثير الدهشة . [illegible] قصر العينى . ومن القصر العينى للعيادة . ثم للبيت . وبعد الظهر [illegible] إلى العيادة ثم يقضى ساعة أو ساعتين مع بعض زملائه الأطباء فى « جروبى » ولا تأزف الساعة التاسعة حتى يكون فى البيت . لا يمكن أن يسهر خارج البيت إلا معى إذا ألححت عليه فى أن يصحبنى إلى السينما . أين يمكن أن تعثر الفتاة على رجل من هذا النوع فى هذه الأيام ! «ياخى ده أيه ده ! » . إننى أسمع من صديقاتى أموراً يشيب لها الشعر . . . شبان لا يتورع الواحد منهم عن أن يدعو صديقته إلى نزهة فى سيارته إلى الهرم . ويؤكد لها أنه يحبها ويعبدها . وأن قلبه لم يخفق من قبل بحب غيرها . ولا يمكن أن يخفق بحب أخرى . فإذا أوصلها إلى منزلها أسرع ليقابل راقصة فى إحدى مراقص القاهرة كانت إلى عهد قريب تتخذ مكانها المنزوى على « دكة المخدم » فى إحدى أزقة « البغالة » راقصة « زرقة » يشيع الوشم الأخضر فى وجهها ويديها وساقيها .

وسكتت سميرة قليلاً وشخصت إلى عينى . فلما اطمأنت إلى أننى كنت أتتبع حديثها باهتمام استمرت قائلة :

— لقد قصت علىّ منيرة ابنة على بك قدرى حكاية غريبة . . . عرفت فى الصيف الماضى بكازينو سان استفانو شاباً يشغل منصباً فى

السلك السياسى كان يقضى أجازته فى مصر إذ ذاك . ولو سمعت الكلمات التى كان يسكبها فى أذنها لقلت — كما قلت أنا — إنه شاعر و إن منيرة هى وحيه . وروحه . وإنه لا يقوى على الابتعاد عنها ساعة واحدة . حكت لى أنه دعاها ذات مرة لنزهة فى طريق أبى قير . وانتحى بسيارته ناحية منعزلة ومرت بهما سيارات أخرى عديدة وهو صامت لايتكلم ثم أدنى عينيه وقد لمعت فيهما الدموع من عينيها وتمتم « أتظنين يا ر يرى أن هؤلاء الشبان يحبون الفتيات الملتصقات بهم كما أحبك أنا . أقسم لك أن قلبى يخفق بحبك حباً لا تعرفه قلوب الرجال أجمعين . أترين ؟ أترين أنهم يعدون بسياراتهم يضحكون . ويمرحون . ويتبادلون القبلات . أما أنا فإننى لما أراك إلى جانبى أقنع القناعة كلها فلا أحس برغبة فى أن أتحدث أو أن أمد يدى لأضعها فى يدك وأضغط عليها . أو أن ألف ذراعى لأطوق به عنقك . لقد شبعت من ذلك مع فتيات أخريات قبلك فى أوروبا . فتيات من نوع آخر خلقن لهذه « المرمطة » واعتدن عليها ... أما أنت ... لست أدرى ما هذا الشعور الجديد الذى استحوذ علىّ ... » فلما سألته « وما هذا الشعور ؟ » أجابها « أحب أن أنظر إلى عينيك وأحلم . أحلم بمستقبلى ومستقبلك . مستقبلنا معاً . حتى الموت . لم يخطر لى قط أن تصادفنى فتاة تتحكم فى كيانى هذا التحكم . كنت أطارد فكرة الزواج دائماً كما أطارد هرة متوحشة تتحرش بى وتحاول نشب أظافرها فى جلدى . طالما كتب لى أهلى وأنا فى أوروبا يعرضون على أسماء العرائس وطالما قدمت إلى فتيات

فرنسيات وأمريكيات من أسر طيبة . ثرية . ومع ذلك كانت الهرة المتوحشة تنفرنى ... إلى ... إلى أن رأيتك . ماذا فعلت بى يا ريرى ؟ »

وهزت سميرة رأسها هزات بطيئة منقطعة ثم مدت يدها وضغطت على يدى بشدة واستمرت قائلة :

— أتعرفين ماذا فعل ذلك الرجل الذى تفوه بكل هذه الكلمات ؟

فتمتمت أنا فى خوف

— ماذا فعل ؟

— لما عادت منيرة إلى القاهرة بعد انتهاء الصيف بحثت عنه فلم تجده وعلمت أنه سافر إلى أوروبا بعد انتهاء أجازته . . . وظلت المسكينة تنتظر كلمة منه . وطال انتظارها شهوراً . وكانت قد أفضت بخبر خطبتها له إلى بعض قريباتها وصديقاتها فلم تعد تدرى بم تجيب على أسئلتهن . ولذا احتجبت ولم تعد تبدو فى حفلات الليالى « الأولى » لبرامج دور السينما الكبرى كعادتها لتتفادى النظرات المستفسرة . والبسمات الحائرة الموجهة إليها من القاصير الأخرى . وأخيراً . . . آه ! أخيراً قرأت فى احدى المجلات أن وزارة الخارجية استدعته لأنه لما كان فى أثينا قبل ذلك بعامين تزوج بإحدى العاملات ثم انتقل إلى جهة أخرى دون أن تعلم زوجته وغدر بها بعد أن رزق بطفل !

وصدرت منى شهقة حادة طويلة . سادت بعدها فترة صمت رهيب . ثم قالت سميرة .

— لو بحثت عشر سنوات فى كل مكان . لما عثرت على شاب من طراز « أبى أحمد » .

استمعت إلى حديث سميرة فى صمت ذاهل ! وأخذت أذكر جلساتى الطويلة فى شرفة منزل خالتى أنظر إلى السيارات الزاحفة فى بطء إلى سفح الهرم كأنها أشباح غامضة فى درامة حب قديمة من درامات شكسبير !

وارتجف جسدى كله !

إن أحمد شقيق سميرة شاب كغيره من أولئك الشبان الذين طالما مروا من أمامى و إلى جانبهم فتاة غارقة فى جوف السيارة لكيلا يبدو وجهها لأحد من المارة قد يشى إلى أهلها بخبر خروجها مع رجل ليس زوجها ولا شقيقها إلى تلك النزهة الخلوية المريبة .

كنت أسائل نفسى أحياناً وأنا أنظر إلى إحدى تلك السيارات وهى مبتعدة لتختفى فى ظلام الطريق الممتد إلى مدى البصر « أين ذهب رشد هذه الفتاة ؟ ألا تدرى يا ترى أن هذا الشاب الذى إلى جانبها قد خرج فى الليلة السابقة مع فتاة غيرها فى نفس هذه السيارة . واجتاز معها نفس هذا الطريق . وقال لها نفس الكلمات التى يقولها الآن . أم أنها تدرى ولكنها تخدع نفسها ؟ » ثم تشتد بى الدهشة من قبول فتاة تحس بشىء من الكرامة أن تتردى إلى حد الجلوس فى نفس المكان الذى سبق أن جلست فيه من قبلها فتاة أخرى . و إلى وضع يدها فى يد طالما داعبت غيرها وتسليم شفتيها إلى فم لم يشمئز من تقبيل عشرات سابقات !

وأحياناً أخرى كنت أقف حيرى أمام سؤال آخر طالما هاجمنى فى قسوة أليمة « كيف تقوى هذه الفتاة على إخفاء هذه المغامرات عن زوجها فى المستقبل ؟ انها لابد تعرف أن هذه النزهات المختلسة . فى سيارة تعدو تحت ظلام الليل كأنها تحمل معالم جريمة منكرة لا تمهد لزواج أكيد مستقر . أن الرجل الذى سيهبها اسمه يعرف أن الطريق لذلك هو التقدم بخطى ثابتة إلى باب منزل أهلها وطلب يدها . وما دامت ستتزوج برجل آخر فبأى وجه ستقابل هذا الزوج ؟ وبأى ضمير ستضحك له ؟ وأية قحة ستمكنها من أن تحمل اسمه أمام الناس ومن بينهم هذا الشاب الذى إلى جانبها الليلة ! »

وكنت فى كل مرة لا أصل إلى جواب أطمئن إليه . . . ولكننى كنت دائماً أذكر «شاويش المديرية» بالخير وألعن نفسى لأننى خيل إلى أحياناً أن أسخط عليه وعلى جلسته التقليدية العسكرية بشاربيه المفتولين كسوطين إلى جانب حوذى « عربة المدير » ! ولكن . . .

ولكن سميره أكدت لى أن شقيقها أحمد ليس كغيره . . .

وعادت كلماتها الأخيرة ترن فى أذنى . . .

« لو بحثت عشر سنوات فى كل مكان . لما عثرت على شاب من طراز أبى أحمد »

وكنت إذ ذاك أتقدم مسرعة إلى الثامنة عشر من عمرى . . . وخطر لى لحظتئذ خاطر بدا غريباً أمامى لأول وهلة لأنه لم يسبق أن خطر لى من قبل حتى كدت أنكر نفسى .

خطر لى أننى لا بد أن أنتهى قبل انقضاء وقت طويل إلى اختيار الرجل الذى سأحمل اسمه . وأشاركه الحياة . وأعطيه كل ما يمكننى اعطاؤه واحمر وجهى فجأة . ولحظت سميرة ذلك لأنها أدنت رأسها منى وسألتنى

— مالك سكت ؟ — فتمتمت

ماذا تريدين أن أقول !

— انه يعرف أنك قادمة لزيارتى اليوم . لا يجب أن تطرقى أمامه إلى الأرض اطراقك الآن .

ولم تكد تنقضى بضع دقائق حتى أقبل احمد . . . كان شابا فى الخامسة والعشرين من عمره . يمتاز بقامة رائعة تغرى بإطالة النظر الصامت إليه فى خشوع وتقدير . كما يمتاز بلون قمحى محروق يوحى تواً بفكرة ما عن رجولة غنية بالخشونة . وعينين واسعتين تنمان عن إرهاق دائم فى عمل زاخر بالمسئولية .

كنت أعرف أنه كان طبيباً . ولكننى لما وقع بصرى عليه شعرت بأنه أكثر من طبيب . لم يكن متأنقاً فى ثيابه كما اعتاد الأطباء الشبان أن يتأنقوا فى أوقات فراغهم . ولم تكن تفوح منه رائحة « اليود » و « اليوكالبتس » ولم تكن تبدو فى جيبه الداخلى فوهة « السماعة » المعدنية اللامعة . لم يكن كغيره . . . بل كان يرتدى ثوباً من « الكراش » الأبيض السميك الذى كثرت فيه الثنايا الدالة على أنه فى حاجة قصوى إلى الكى .

وغمرنى إذ ذاك إحساس بالراحة لأننى استنتجت أنه منهمك فى عمله إلى حد لم يجد معه الوقت الكافى لكى يعنى بكى ثوبه .

وانحنى احمد وهو يتقدم إلى ثم شاعت فى وجهه ابتسامة هادئة خجلى ولما قدمتنى سميرة إليه أسرع فمد يده وصافحنى فلمحت بقعة من الدم على « كم » قميصه .

أؤكد لك ياسيدى أننى لم أشمئز من رؤيتها ولذا لم أشأ أن أنبهه أو أنبه سميرة إليها خشية أن يخفيها . ولما تقهقر فى رشاقة إلى مقعد فى أقصى الغرفة وجلس عليه أحسست برغبة فى أن أتخيل شيئاً عن حياته التى كنت أجهلها . ولست أدرى لم استبعدت تواً فكرة إمكان أن يكون طبيباً لأمراض النساء ! وملت إلى تخيله كجراح من جراحى المستشفيات المتنقلة فى قرى الريف المصرى التى لا يقع البصر فيها إلا على المرضى القرويين وذلك النوع المتخشن الخجول الورع من القرويات اللاتى لا تفكر زوجة فى الغيرة على زوجها منهن !

وتبادلنا ليلتئذ حديثاً قصيراً عن خبر كان قد نشر فى « المقطم » عن اعتزام شركة أجنبية التقاط مناظر « فيلم » شرقى تحت سفح الهرم وعن حاجتها إلى بعض ممثلات وراقصات مصريات يشتركن فى تمثيل « الفيلم » وشعرت برغبة فى أن أسأل أحداً :

— من هى البطلة التى سيقع اختيار هذه الشركة عليها يا ترى ؟

فضحك ضحكة قصيرة مشمئزة اهتز لها كيانى كله ثم قال :

— إن مهمة هذه الشركة شاقة عسيرة ! لأن بائعات « الحص » و « الملانة » اللاتى يعملن كراقصات فى ملاهى الليل بالقاهرة . واللاتى تبدو على جلودهن آثار محاولة إزالة وشم قديم بماء النار لا يصلحن لتمثيل جمال نساء العهد العربى الذى تدور حوادث القصة فيه . إننى أعتقد أن من واجب الحكومة إنقاذ الشبان من هذه الطبقة من النسوة اللاتى تخفى أنوار المسرح عيوب وجوههن وأجسامهن .

قلت لك يا سيدى إننى شعرت بكيانى كله يهتز عند ما سمعت أحمداً يهاجم تلك الطائفة بذلك الإلقاء المتحمس الحاد القاطع كأنه نصل سكين حامية . لأننى كنت أخشى ألا يفعل !

وامتلأ صدرى تقديراً له و إعجاباً به . وخيل إلى أن أنهض وأتقدم إليه ثم أصافحه بحرارة . ولكنى ترددت . وتذكرت تواً أنه لم تربطنى به بعد رابطة ما . ليس زوجى ولا خطيبى . . . ولا حبيبى !

— ٣ —

وعدت ليلتئذ إلى المنزل . منزل خالتى المطل على طريق الهرم . وأنا عاجزة عن أن أتخلص من التفكير فيه . وجلست كعادتى أنظر من بعيد إلى السيارات الزاحفة فى بطء إلى سفح الهرم . وللمرة الأولى فى حياتى تبينت أن هناك شيئاً ينقصنى . . . وأن وحشة مضنية كريهة تحيط بى . وأخذت أحس بأننى فى حاجة إلى من يشاركنى تلك الجلسة الهادئة كما يشاركنى

السخرية من أولئك الفتيات الشقيات اللاتى يقذفن بمستقبلهن وسمعتهن وسعادتهن إلى تلك المغامرة الجريئة فى ظلام ليالى الهرم !

ولكننى تلفت حولى فلم أجد أحداً ! وخيل إلىّ وأنا ذاهلة أن أنادى . وأيقنت أننى لو ارتفع صوتى بالنداء لاسترحت لأن صدرى كان يضيق به !

وتمتمت فى صوت هامس « أحمد » . . . ثم تجرأت فرفعت صوتى « أحمد . أحمد » . . . ولما لم يجبنى أحد سكت . ولم أشعر بامتعاض لأننى كنت واثقة من أن أحمداً فى منزله يقرأ فى كتاب من كتب الطب . أو ينام ليريح جسمه استعداداً لعمل اليوم التالى . إنه ليس كغيره من الشبان الذين يلوثون لياليهم بتلك الألوان العابثة المستهترة .

وتذكرت كلمات سميرة « من البيت للقصر العينى . ومن القصر العينى للعيادة ثم للبيت . وبعد الظهر يذهب إلى العيادة ثم يقضى ساعة أو ساعتين مع بعض زملائه الأطباء فى « جروبى » ولا تأزف الساعة التاسعة حتى يكون فى البيت . لا يمكن أن يسهر خارج البيت . . . »

ولما أغمضت عينى بعد منتصف الليل لأنام كان يغمرنى شعور هادىء بالسعادة . كنت أفخر بنفسى وأرثى لأولئك الفتيات اللاتى غادرن منازلهن فى تلك الليلة من ليالى الشتاء القارص البرد مع رجال لا يمكن الوثوق بوفائهم . وتجشمن تلك المخاطر الجريئة من أجل غرام توهمن بقاءه . ولمست الفرق الشاسع بينى و بينهن وأنا مستلقية على فراشى مستريحة مطمئنة إلى

وجود أحمد فى منزله . وهن مشردات فى الطريق معرضات لأخطاره مرتجفات خشية رؤيتهن مع أولئك الرجال . أو تأخرهن عن العودة إلى منازلهن فى الموعد الملائم !

وامتلأت زهواً إذ وفقت ذلك التوفيق الذى خيل إلى أننى وصلت إليه منذ الليلة الأولى فنمت نوماً هادئاً عميقاً حتى الصباح .

وقد استيقظت على صوت الخادمة تدعونى للتحدث إلى سميره فى « التليفون » فلما ذهبت للرد عليها قالت :

— « ما يقدرع القدرة إلا ربنا » . لقد أيقظنى أحمد عند الفجر قبل مغادرته البيت ورجانى أن أخبرك أنه سيسافر بسيارته إلى العياط وأن كل ما يتمناه أن تقفى فى الساعة السابعة بشرفتك ليتمكن من إلقاء نظرة عليك وهو مار بشارع الهرم فى طريقه إلى العياط .

ودهشت فى بادىء الأمر لذلك ولكننى لم ألبث أن شعرت بنوع من التيه !

وتبينت مرة أخرى أن « رجلى » لايعمد إلى إرهاقى بدعوتى إلى مغادرة المنزل والذهاب للقائه والاستهداف لخطررؤيتى إلى جانبه فى سيارة وإنما يقنع بالمرور أمام بابى . من بعيد . . . كأننى أميرة تستعرض قائد جيشها !

وأسرعت فأخرجت ثوباً أنيقاً من ثياب المنزل . أوه ! لا زلت أذكر ذلك اليوم ياسيدى . كان ثوباً ناصع البياض . وأمسكت بيدى وردة حمراء ثم وقفت أنتظره . . .

وبعد قليل أقبل بسيارته . لم يكن إلى جانبه أحد . وإنما كان جالساً خلف عجلة القيادة وقد وضع إلى جانبه معطفه الأبيض وحقيبته الجلدية الصغيرة . كان يبدو جلياً أنه ذاهب إلى عمل . عمل رجل مسئول لا إلى نزهة داعرة من نزهات الشبان تحت سفح الهرم !

وبدا منظره أمام عيني والشمس مشرقة . وقطارات الترام وعربات النقل تعدو . وباعة الخضر والفاكهة يمرون على الإفريز المواجه للمنزل بدا منظر رائعاً . خلاباً . مثيراً لأقصى عواطف الإعجاب . كان ذلك المنظر بكل ما يحيط به مخالفاً تمام المخالفة لما اعتدت أن أراه من قبل .

وأخرج يده من نافذة السيارة يحييني . فطوحت بالوردة التي كانت في يدي بقوة لأرد على تحيته . ثم اختفت السيارة مسرعة وتركتني واقفة أنظر إلى الأفق البعيد الذي احتواه . . .

ولما عدت إلى غرفتي لم يكن يشغل تفكيري إلا هو . أحمد . الذي تركني أعيش في جو يفيض رجولة وقوة وهيبة .

— ٤ —

وتطورت الحوادث بعدئذ فكثر ترددي على منزل عبد الحميد بك راشد بحجة زيارة ابنته سميرة ولم تشك خالتي أنجه هانم في سلامة قصدي وكانت تسمح لي بذلك وهي مطمئنة .

واعتدت أن أجلس وحدي مع أحمد برهات متفرقة أثناء اهتمام سميرة بالإشراف على ادارة المنزل . وكنت في كل مرة يزيد إعجابي به وتقديري له

ولقد أثار دهشتى أنه لم يعمد قط إلى دعوتى للخروج معه فى السيارة كما يفعل غيره ولكنه فى نفس الوقت أثار اعتزازى بكرامتى . كما أنه لم يفكر يوماً فى الدنو منى والقبض على يدى والإيحاء إلىّ برغبته فى أن يفوز منى بقبلة . كان يبدو جلياً تعمده أن يسمو بى عن المكانة التى يضع غيره من الرجال فيها فتياتهم المعشوقات . كان يخيل إلى عند ما أراه جالساً فى أقصى الغرفة قانعاً بأن يختلس منى بضع نظرات خاطفة أنه يعبدنى عبادة طاهرة لادنس فيها . . .

ووفق الدكتور احمد راشد بعد بضع مرات أخرى ترددت فيها على منزل عبد الحميد بك راشد فى أن يدعنى أطمئن إليه اطمئناناً لم أحس به من قبل نحو رجل آخر . فقذ كنت ألاحظ فى كل مرة أنه كان يكتفى بالجلوس فى أقصى الغرفة يتبادل معى الحديث عن أمور مختلفة ويقنع بأن يرفع إلىّ نظره بين كل فترة وأخرى نظرة بدأت — كما قلت لك — خاطفة سريعة ثم أخذت تطول . وتطول . . وتطول . . . حتى أصبحت أغنية تلك الجلسات التى كنت أنفرد فيها به أثناء انشغال سميرة شقيقته بشئونها المنزلية . أغنيتنا أنا وهو . . الأغنيـة التى كنت أطرب لها . والتى كانت تنتشى منها روحى .

وكنت أعود فى كل مرة إلى منزلى لأجلس فى نفس الشرفة التى تطل على طريق الهرم العتيد . . أشاهد ذلك السرب المتقطع من السيارات الزاحفة أحياناً فى سرعة هائلة وأحياناً أخرى فى بطء متثائب كأنها عروس

تستيقظ غداة ليلة عرس فاخرة . ثم استعرض فى خيالى كل ما حدث بينى وبين أحمد . . كيف دخل إلى « الصالون » وكيف انفرجت شفتاه الغليظتان القمحيتان عن ابتسامته التى ابتدعها والتى لم أر رجلا آخر استطاع أن يقلده فيها ! الإبتسامة التى توحى تواً فكرة وثوق صاحبها بنفسه والتى كانت تقول لكل امرأة أخرى « حاذرى . لاتظنى أننى رجل سهل . أننى لها . لها وحدها » وكان إحساسى فى كل مرة يزيد على المرات التى سبقتها بأن تلك التى تستأثر بقلب أحمد والتى تشير إليها ابتسامته الهادئة هى . . . أنا . . . أنا وحدى !

كانت هناك فتيات أخريات يترددن على منزل عبد الحميد بك راشد مثلى . وكان يلتقى أحمد بهن . ويحييهن أمامى . فكنت أهتم اهتماماً هائلاً بالنظر إلى تقلصات شفتيه !

أوه ! اغتفر لى يا سيدى هـذا الإسهاب فى بعض التفاصيل التى قد لاتروقك وثق بأنها لعبت فى حياتى دورها المدمر العاصف . إننى أعود فأقول أن شفتيه لم تخيبا مرة واحدة فى تغيير اقتناعى بأن أحمد لم يكن يهتم بفتاة أخرى غيرى . . كان يحيى الجميع ولكنه كان يحتفظ بتلك النظرة الطويلة الشاردة . الحالمة . بتلك الأغنية التى اعتاد أن يسكب فيها روحه الحزينة لى أنا وحدى . .

وظللت أكرر التردد على منزل راشد بك دون أن يفاتحنى أحمد فى الخروج معه مرة . حتى بدأت أشعر أنا نفسى بأننى فى حاجة إلى أن أختلى

. بعيداً عن ذلك الجو الذى تسممه نظرات سميره وصديقاتها من المترددات على المنزل . كان يخيل إلى أننى لو اختليت به لأصبحت أكثر قدرة على أن أصارحه بأشياء كثيرة كانت تداعب خيالى .

وانتظرت تلك الدعوة منه . انتظرتها طويلاً ولكنه لم يفعل . . . ظل ساكتاً حتى بدأت أغار من اصراره على البقاء فى منزل أبيه إلى جانب والدته وشقيقته !

وأخذت رغبتى فى أن يدعونى إلى نزهة خلوية فى سيارته تشتد حتى كدت أفاتحه أنا فيها .

وعندئذ تحرك أحمد ودعانى . . . .

كنت أنا وخالتى أنجه هانم نشاهد أحد « أفلام » السينما فلمحته جالساً مع شقيقته سميره فى إحدى المقاصير القريبة . ولا أخفى عنك أننى لم أستطع ليلتئذ أن أفهم شيئاً مما كان يعرض أمامى لأن الغيرة أعمتنى . . الغيرة من شقيقته التى اهتم بها إلى حد دعوتها لمشاركته سهرة السينما ولم يفكر فى أن يدعونى أنا للانفراد به ساعة أو بعض ساعة نتحدث دون أن يسمعنا أحد !

ونسيت إذ ذاك أن شر ما كنت أخشاه عند بدء علاقتى بأحمد أن يجرؤ فيدعونى إلى الخروج معه فى سيارته كما يفعل الشبان فى طريق الهرم بأولئك الفتيات اللاتى يدفن أجسامهن فى أجواف السيارات ولا يدعن ظاهراً منها إلا رؤوساً شقراء أو سوداء ! نسيت ذلك تماماً ولم أعد أفكر

إلا فى أن أجلس إلى جانب أحمد . . مرة واحدة منفردين . نغنى أغنيتنا الحبيبة الصامتة التى تشترك نظراتنا النهمة فى توقيعها .

وانتهى عرض الفيلم . . وخرجت أنا وخالتى أنجه فتباطأ أحمد فى سيره حتى لحقنا بهما . وانشغلت خالتى فى تحية سميره شقيقته وعندئذ مال على أذنى وهمس فيها قائلاً «سأمر عليك غداً فى الساعة الثامنة مساء . انتظرينى عند آخر سور الحديقة . . . تظاهرى بالرغبة فى مغادرة المنزل للسير على قدميك قليلاً فى شارع الهرم »

لم أجبه . ولكن الفرح كان ظاهراً بجلاء على قسماتى

لقد تحققت أمنيتى . . وزاد فرحى أن أحمداً استطاع أن يعرف تماماً اللحظة التى نفد فيها صبرى ولم أعد أستطيع بعدها أن أطيق الانتظار

وقضيت الليلة أحلم بذلك اللقاء المرتقب . واستيقظت مبكرة لكى أقف أمام المرآة أصلح شعرى وأتأنق فى اختيار الثوب الذى يرضى أحمد ويمكن أن يثير إعجابه . واعتصرت ذاكرتى كى أستعيد بعض تعليقاته القديمة على أزياء الفتيات . . الألوان التى يفضلها والأشكال التى يميل إليها وطرق تنسيق الشعر التى يعجب بها . وقضيت اليوم كله واقفة أمام المرآة حتى أزف موعده فاستأذنت من خالتى فى أن أنزل للسير قريباً من المنزل ونزلت . .

— ٥ —

وأقبل أحمد بسيارته ففتح بابها فى رشاقة ثم ابتعد بى مسرعاً وأنا إلى جانبه . . .

أية ســعادة !

لقد شعرت إذ ذاك أننى ملكت كل شىء فى العالم لأن أحمداً كان إلى جانبى .

ولما وصلنا إلى أول طريق الفيوم انحرف أحمد وأوقف سيارته خلف ربوة مرتفعة حجبتنا عن الطريق .

كانت الشمس قد غربت وكانت الصحراء الصامتة تترامى رمالها أمامنا كأنها حيوان أليف جاثم تحت قدمينا

وانحنى أحمد فجذب « فرملة » اليد ثم — فجأة — رفع جذعه الأعلى فى رشاقة وأدنى رأسه منى . . . كنت مرتبكة لا أدرى ماذا أفعل فلم يسبق لى أن ركبت إلى جانب رجل ! ولحظ هو ارتباكى فأدار ساعده الأيمن ورفع رأسى فى رقة هائلة ثم وضعها على ساعده كى تستريح . . . وأخذت شفتاه تدنوان فى بطء من شفتى وطبقة خفيفة من الدموع تلمع على ضوء قمر الصحراء فى عينيه . وفجأة هوى على شفتى وقبلنى قبلتنا الأولى . . !

إن جسمى يرتعد كلما ذكرت تلك الليلة فقد ظللنا خلف تلك الربوة التى أغلب ظنى أن رواد طريق الفيوم يجهلونها إلى الآن حتى ساد الظلام

تماماً فأوصلنى إلى المنزل ثم تناول يدى وطبع على ظهرها قبلة طويلة وابتعد عائداً إلى القاهرة ...

وأصبح عادياً بعد ذلك أن نلتقى حتى دون أن يكون قد سبق بيننا اتفاق على اللقاء . فكان يمر بسيارته وينبهنى بصوت « الكلاكسون » الذى حفظته كأنه قطعة موسيقية نادرة . فأسرع إلى ملاقاته عند نهاية سور الحديقة الواسعة الممتدة التى كانت تحيط بمنزل خالتى وتفصله عن طريق الهرم

وتبينت بتوالى الأيام أننى أصبحت مخلوقة أخرى...: مخلوقة جديدة ... لها آمال أخرى فى المستقبل ونظرات أخرى إلى الحياة ورعشات أخرى لم يكن لها بها عهد من قبل . كان يكفى أن يضع احمد يده على يدى ويطيل النظر إلى عينى لكى أحس بأننى ملكت كل شىء . بل كان يكفى أحياناً أن أحس بوجوده إلى جانبى لكى أوقن بأننى أسعد فتيات العالم

ولقد كنا نتفنن فى تلوين تلك النزهات الشعرية فى طريق الفيوم ...

كنت أحضر معى أحياناً بعض مأكولات جافة أطهيها بنفسى لكى أتمتع برؤية أحمد وهو يأكل ويمضغ ثم وهو « يزور » وأنا أقحم الأكل إلى فمه بقوة ! وكنت أحياناً أخرى أحضر معى الإبرة لكى أرسم على صدر قميصه الحريرى الحرفين الأولين من اسمه كأننا زوجان . وأكثر من مرة أحضر معه أوراقه المصلحية . وبعض حسابات أطيان أبيه ثم استعان بى على عمليات الجمع والطرح أثناء جلوسنا على الرمل إلى جانب

السيارة . . وذات مرة رجوته أن يحضر لأراه فصارحنى أنه مرهق إذ قضى اليوم كله يجوب أنحاء القصر العينى سيراً على قدميه . ولما ألححت عليه أقبل مسرعاً ولكننى لم أكد أراه حتى تبينت تواً صدق ما أخبرنى به فطلبت إليه أن يستريح إلى كتفى فألقى برأسه على صدرى واستغرق فى النوم كطفل .

وانقضت بضعة شهور ونحن نسعد بذلك الحب الهانىء . لم أشعر يوماً ما بأنه أهملنى . أو أغضى عنى . أو عصى لى رأياً . كان لى كما كنت كلى له . كنت أعد نفسى لكى أجعله سعيداً وكنت أعتبر أن واجبى فى الحياة ينتهى إذا ما استطعت أن أسعده .

— ٦ —

وحدث ذات ليلة أن أقبل بالسيارة كعادته . واصطحبنى معه . ولكنه لم يكد يبتعد قليلا عن المنزل حتى التفت إلى وقد ظهر على وجهه نوع من الألم ثم قال فى صوت مرتجف

— إننى اليوم فى أشد حالات الضيق . . . لقد حاولت أن أتفادى هذا الانتداب بكل الطرق فلم أستطع

فالتفت إليه مذعورة وسألته

— أى انتداب !

— لقد صدر أمر بانتدابى لمستشفى الاسكندرية بسبب مرض أحد زملائى هناك وسأضطر للتغيب شهرين . . . نعم شهرين طويلين . . .

وانقض ذلك الخبر على كالصاعقه ولكننى تجلدت . ووجدتنى مضطرة أن أقول له وأنا أتكلف الهدوء

— ولم هذا الضيق كله ؟ انك ستغيب لتؤدى واجباً عليك أداؤه .

فتمتم — ولكن . . .

— ولكن ماذا ؟

— كيف أتركك ؟

— سأنتظرك . ستجدنى كما أنا اليوم .

— أسوف لا ألاحظ عند عودتى تغيراً ؟

— أجل . ستلاحظ تغيراً فى شىء واحد .

— ما هو ؟

— ستجدنى أكثر حباً لك وتعلقاً بك .

وعندئذ مد يده إلى درج السيارة وأخرج منه كتاباً قدمه إلى عنوانه « كتابى لك » Le Livre pour Toi للكاتبة الفرنسية « مرجريت بورنا بروفانس » فوضعته فى حقيبتى . ثم قضينا برهة قصيرة أوصلنى بعدها إلى المنزل وتعانقنا طويلا وقبل أن أغادر السيارة وعدنى أن تصلنى رسائله عن طريق شقيقته سميرة . . .

أحسست بعد عودتى بالفراغ الهائل المخيف الذى أخذ يحيط بى . وحاولت

النوم فلم أستطع وعدت إلى الشرفة التى طالما انتظرته فيها وأخذت أنظر إلى الأفق البعيد الممتد حتى صحراء الفيوم ... خيل إلى أن تلك الصحراء التى كانت تجثم تحت قدمى كحيوان أليف قد تمردت وأخذت تزمجر مهددة ثائرة بعد غيبة أحمد .

ورجعت مسرعة أبحث عن الكتاب الذى أعطاه أحمد لى . « كتابى لك » مجموعة تلك الرسائل الغرامية الجبارة التى أرسلتها الشاعرة العاشقة إلى حبيبها الذى فتنت به حتى العبادة . والتى أثارت تقدير المؤلف الكبير هنرى باتاى حتى كتب مقدمتها الرائعة التى رفعها فيها إلى ذروة الأدب السامى .

وشعرت برغبة قوية فى أن أكتب إلى أحمد حتى قبل أن يكتب هو إلى . ونهضت مسرعة فتناولت ورقة وكتبت إليه هذه الكلمات

« أحمد !

إننى أنصت ولا أسمع شيئاً

وأرتعش ولا أشعر ببرد

وأصرخ وليس هنا ما يثير ذعرى

أتدرى لماذا ؟

لأننى انتظرتك يا أحمد دون أن تحضر ..

ثم وضعت الورقة داخل مظروف وكتبت عليه عنوان أحمد بالمستشفى الأميرى بالاسكندرية وظللت ساهرة أترقب الصباح فنزلت بنفسى إلى القاهرة وألقيت الخطاب فى أول صندوق صادفنى من صناديق البريد

ولما عدت إلى المنزل لم أجد عزاء لى إلا مطالعة ذلك الكتاب الذى تركه أحمد معى كذكرى حية لغرامنا الجبار

وانقضى اليوم وأنا أتصفح ذلك الكتاب العاشق وأستعيد ليالينا خلف الربوة المختفية عن أنظار المارة فى طريق الفيوم . وتذكرت ليلة قال لى وهو يساعدنى على الهبوط من سلم السيارة فى بدء غرامنا وقد تعثرت لارتباكى فى طرف الرداء الأبيض الذى كنت أتشح به « أتعرفين يا لولا ماذا خطر لى الآن ؟ » فلما هززت رأسى متسائلة أجابنى « خطر لى أن أركع على ركبتى اليمنى وأقبل طرف ثوبك وأنت تهبطين من السيارة كملكة »

وهاجت فى صدرى إذ ذاك رغبة فى أن أكتب إلى احمد مرة أخرى . لم يخطر ببالى قط أننى أرسلت إليه رسالة فى اليوم السابق لم يجبنى عليها لأننى لم أكن واثقة من أنها وصلته بعد

ووجدتنى بعد قليل قد انتهيت من كتابة هذه الرسالة .

« أتذكر يا أحمد ليلة تعثرت أثناء هبوطى من سيارتك فى طريق الفيوم وكدت أسقط فتلقيتنى بين ذراعيك وأنت تقول — خطر لى أن أركع وأقبل طرف ثوبك ؟— لقد كان صوتك يرتجف إذ ذاك إلى حد أن الدموع تدفقت إلى عينى

كان ذلك فى وقت لم أكن فيه بالنسبة إليك شيئاً مذكوراً . فى وقت كنت أكتفى بأن اقرأ حبك لى على تلك الطبقة اللامعة من دموع عينيك وكانت حياتك صلاة صامته أسمع تراتيلها تتجاوب فى أعماق روحك

تعال الآن . ها هو ذا ثوبى وها هى ذى يداى . . . ابق را كعاً وأنا أداعب فى بطء رأسك العارية وأتلقى روحك الجبارة صاعدة كشىء عظيم محبوب . سأحس بها كلها وسأحبك حتى النهاية

ثق يا احمد . ثق تماماً اننى إذ ذاك سأهبط كى أركع إلى جانبك . . . سأركع على ركبتى الاثنتين لكى أقول لك — إعطنى يديك المهتزتين اللتين لا تجرؤا على الاساءة إلى لكى أضع فيهما قلبى . . . إنه لك ذلك القلب فى الفرح والشقاء . فى الحياة والموت . »

وكان أول ما اهتممت به فى اليوم الثانى أن سألت سميرة شقيقة أحمد عما إذا كانت قد وصلتها رسائل منه فأجابتنى مندهشة .

— من منا تسأل الأخرى !

وللمرة الأولى شعرت بنوع من الخيبة تألمت منها كبريائى . ولكنى سرعان ما التمست لأحمد ألف عذر فى عمله الجديد بالاسكندرية . وخطر لى أن أكتب له لأستفسر عن سبب تأخره فى الرد على ولكننى طردت ذلك الخاطر تواً وفضلت ألا تكون رسائلى إليه إلا معبرة عن حبى الشديد له . الحب الذى كنت واثقة إذ ذاك أن امرأة أخرى لم تشعر بمثله نحو رجل آخر .

و بعد قليل كنت أكتب هذه السطور والقلم يرتعد فى يدى .

« لقد سألتنى ذاك مرة — لم تحبينى ؟

أتعرف لماذا يا أحمد ؟ إنه صوت يقبل من بعيد و يتجاوب صداه بين شاطئ القدر الذى ينتظرنى .

أحبك لأنه سجل فى كتاب الحياة أن خطواتى وخطواتك ستلتقيان وأن نظرتى الأولى ستقهرها نظرتك الأولى وتفنى فيها . وأننا بعد سنصبح شيئاً واحداً . أحبك لأنه سجل فى ذلك الكتاب أيضاً أن ساعدىّ سيتلقيان ذلك السحر الفاتن الجميل الذى تهبه رجولتك والذى يقود إلى الشاطىء الذى تنشده كل فتاة . . . الهناء .

أحبك لأنك أنت . . . »

وتحدثت إلى سميرة فى اليوم التالى وأخبرتنى فى لهجة مقتضبة أن أحمد يعتذر عن الكتابة لإنهماكه الشديد فى عمله . فلم يخيل إلى بأن ذلك العذر يمكن أن يكون مختلقاً وأجبتها مسرعة .

— لا داعى لإزعاجه يا سميرة . أنا أعرف أن أحمد إذا تفرغ لعمل انصرف له تماماً . وقد علمت أن نجاحه فى إدارة القسم الذى أنتدب له سيعود عليه بنفع كبير . أرجو أن ترسلى إليه تحياتى إذا كتبت له .

وكنت أقصد بذلك تلافى إطلاع سميرة على تفاصيل غرامى بأحمد لأننى كنت أحرص منذ بدء ذلك الغرام على أن يظل سراً مدفوناً فى صدرينا ليس لأحد غيرنا حق الاطلاع عليه . حتى ولا سميرة .

وأخذت أقتنع بأنه يكفى فى مثل الظروف التى كنت أجتازها أنا وأحمد أن يكتب أحدنا للآخر .

وكانت رسالتى الرابعة إليه تعبر إلى حد كبير عن الغيرة التى بدأت تندلع ألسنتها فى صدرى أثناء غيابه فقد كتبت إليه فيها .

« قلت لى ذات ليلة وصوتك يرتجف — كل ما أتمناه أن أغمض عينى بعد أن أطيل النظر إليك ثم لا أرى بعدك أحداً

لتكن إذاً ضريراً حتى الموت يا أحمد !

إننى أريد أن أحفر صورتى فى أقصى أعماق عينيك الحبيبتين قبل أن تغلقهما .

عندئذ لا أغار بعد من الزهور والأشجار التى كنا نمر بها فى طريقنا إلى الهرم . ولا من السحب المتنقلة الحيرى التى تظلل صحراء الفيوم والتى كانت نظراتك تتطلع إليها فى شغف معجب .

سوف لا تعرف بعد أن تصبح أعمى ما إذا كانت امرأة أخرى قدمرت إلى جانبك . سوف لا يمكنك أن تتبين من بعيد جمال شعرها أو فتنة يديها أو قسمات وجهها التى تعبر عن إعجابها بك .

صورتى وحدها هى التى تحيا فى خيالك المغلق وهى وحدها التى ستغذيك بالضوء الذى يكفى لإقناعك بسر حبى لك .

اقترب منى يا أحمد . اقترب منى . . أكثر من هذا قليلا . . . اقترب ولا تخش .

إننى فقط أريد أن أحس بأنك عميت عن كل شىء سواى »

وظلت رسائلى تتوالى إليه تحمل كل منها تلك الكلمات المعبرة عن ولهى وأنا قانعة بأنه يقرؤنى ويرضى عنى . ولقد خيل إلىّ فعلا ذات مرة أن أثور على ذلك الاستعباد الذى أرضخنى غرامى بأحمد له صاغرة ذليلة

ولكننى سرعان ما تبينت أننى واهمة فى تصور قدرتى على تلك الثورة فكتبت إليه أقول :

« كنت أسير منذ بضعة أعوام مزهوة رافعة الرأس . ولكننى توقفت فجأة . كانت خطواتى لا تتبع إلا هواها ولكنك قيدت سيرها بقيود من حرير . كانت عيناى الفاحصتان تدققان فى كل مايعترضهما من صور الحياة ولكنهما أصبحتا لا تريان إلا أنت

أناملى النشطة لم تعد تستطيع الفكاك من بين يديك .

فمى لم يعد يرتل إلا أغنية الهناء التى علمتنى أياها .

سأبقى أسيرتك كما تبقى الجارية عبدة لذلك السيد الذى يتحمل عنها عبء الحياة ويجعل نفسه مسئولاً عن سعادتها

ليكن . . لأجهل الطريق الذى يسير فيه الناس . ولأجهل بقية الأماكن التى يحتوى عليها العالم والتى لم ترها عيناى بعد

لأنس كل الكلمات التى يتبادلها الناس والتى لاتشتمل على « ياحبيبى »

لأنس كل الاشارات التى لا ترمى إليك

لينسدل الأفق وليهبط مخفياً كل شىء إلا ابتسامتك

ولكن استحلفك يا أحمد أن تحتفظ بى كما تحتفظ بأصغر الأشياء التى لها أكثر الزوايا تواضعاً فى منزلك

احتفظ بى ».

أما آخر رسالة كتبتها إليه فما زلت أحفظها عن ظهر قلب . . إننى أعيد

كتابتها الآن وأنا أبكى ولو أننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من الدهشة كلما ساءلت نفسى كيف كتبتها

« أحمد

لن تقول لى قط — لا

تذكر أننى قبلت شفتيك كيلا تنفرجا إلا عن أرق الكلمات

لن تدع الغضب تتصاعد ثورته إلى عينيك .

تذكر أننى قبلت أهدابك كى تصبح نظرتك إلى مداعبة رقيقة .

لن ترفع أصبعك فى وجهى مهدداً متوعداً

تذكر أننى قبلت يديك حتى لا تتعودا إلا على أكثر الإشارات حناناً .

لن تبتعد عنى

تذكر أننى قبلت قدميك كى تعودا وفيتين إلى منزلى

ستغلق قلبك عن حب غيرى من النساء

تذكر أننى قبلت قلبك من فوق صدرك ليبقى لى . . . لى وحدى حتى القبر »

وانقضى شهر وشهران ولم يعد أحمد . وتكرر سؤالى عنه فى منزل راشد بك فكانت سميره تجيبنى فى أول الأمر منتحلة له الأعذار ولكننى لاحظت أن لهجتها أخذت تجف وتقسو كلما ألححت فى السؤال عنه .

وأقبل الشهر الثالث وانتظرت عبثاً أن أراه ولكنه ظل غائباً ولم يعد وبدأ القدر يهاجم روحى الشابة مهاجمة لم تخل من قسوة عاتية كلما ذكرته

وذكرت الليالى التى اصطحبنى فيها إلى جانبه فى سيارته إلى سفح تلك الربوة العالية فى طريق الفيوم

وحاولت عبثاً أن أتصل به تليفونياً من القاهرة لأطمئن إلى وصول رسائلى إليه . وكنت فى كل مرة تصادفنى الخيبة لأننى إما أجاب بأنه كان يجوب غرف المرضى فى المستشفى أو بأنه غادره لعيادة مريض فى الخارج أو بأنه سافر إلى القاهرة لشأن مصلحى فى مصلحة الصحة . وكنت إذ ذاك أدهش لامتناعه عن المرور بسيارته أمام منزل خالتى أنجههانم بطريق الهرم

واشتد انزعاجى إلى حد أننى أرسلت إليه برقية أنبؤه فيها — كذباً — بأننى مريضة مرضاً يستدعى حضوره إلى القاهرة وانتظرت رداً عليها أسبوعاً كاملاً دون جدوى

إلى أن كانت اللحظة الهائلة التى اكتشفت فيها أننى خدعت كغيرى .. غيرى من آلاف الفتيات اللاتى كنت أشاهدهن من شرفتى وهن منزويات فى أجواف السيارات الصاعدة إلى الهرم أو الهابطة منه ملتصقات إلى جانب شبانهن المعشوقين .

إننى أرتعد ياسيدى الآن وأبكى ولكن .. مرة أخرى اغفر لى هـذا السؤال « ألا يوجد تحت هذه السماء رجل واحد يمكن أن تهزه عاطفة شفقة ورثاء نحو فتاة شقية خدعها رجل من قبله »

إنك رجل — لن أتحول عن رأيى — مادمت رجلا فقدولدت منافقاً ولكننى أعود فأرجوك أن تتحرر ولو إلى حين قريب برهة قصيرة من رجولتك المنافقة حتى أتم سرد قصتى . . .

لا زلت أذكر تلك الليلة وأذكر دقائقها وثوانيها

كان ذلك فى اليوم التاسع من شهر يونيو عام ١٩٣٥ . وكنت قد دعيت إلى حفلة زفاف منيرة ابنة على بك قدرى صديقة سميره وصديقتى وهى التى أخبرتك فى أول هذه الرسالة بأن شاباً من موظفى السلك السياسى كان قد أوهمها بأنه أحبها حباً لم تعهده أروع قصص الحب التاريخية ثم اتضح أنه كان قد تزوج أثناء اشتغاله فى قنصلية أثينا بعاملة رزق منها بطفل . . واستطاعت منيرة بعد ذلك أن تنسى تلك الصدمة وأن تجد الزوج الذى كان يجهل كل شىء عن ماضيها . . .

وارتديت ثوباً من ثياب السهرة البيضاء تعمدت أن أختاره لأنه كان يثير إعجاب أحمد . وذهبت إلى حفلة زفاف صديقتى وأنا لا أزال أحاول إقناع نفسى بأن عذراً قاهراً جباراً هو الذى عاق أحمد عن الكتابة إلى أو الاتصال بى

وكان أول شىء أثار انتباهى فى حفلة الزفاف تلك الراقصة السورية التى كانت تؤدى بعض رقصات شرقية لتسلية المدعوات. كما كانت تلقى أغانيها الفردية المحشوة ببعض الكلمات النابية لإثارة ضحكهن

وجلست أنظر إليها حتى انتهت من إحدى أغانيها فأومأت إليها أن تدنو منى ولما اقتربت قلت لها فى صوت خافت

— ألم تجدى غير هذا الكلام ؟ كنت تستطيعين أن تختارى غير هذه الأغنية — فسألتنى وهى تغمض إحدى عينيها وترفع حاجب العين الآخر إلى أعلا جبينها فى حركة دلال رخيصة

— ماذا اختار يا « حبة عيني » !

فأجبتها مسرعة وأنا أخشى أن تتطاول على

— أغان كثيرة ترجمت من الفرنسية إلى اللغة العربية ونجحت نجاحاً كبيراً . لأنها توافق مزاجنا

فأرسلت ضحكة عالية وفتحت حقيبتها ثم أخرجت سيجارة أشعلتها بسرعة وهى تقول

— إنك تذكرينني به

— من هو ؟

— « الراجل بتاعى » . أنه شاعر مثلك . لا هم له طول النهار إلا القراءة وكلما أستوقفه شيء فيها أكد لى أننى مظلومة إذ ولدت فى الشرق . لأننى يمكن أن أكون وحى أجمل ما فى تلك الكتب .

وزفرت نفساً يدل على الضيق ثم استمرت قائلة :

— أنظرى ماذا أعطانى عندما ودعنى على محطة سيد جابر عند سفرى لحضور هذا الفرح .

ومدت يدها ثم أخرجت من حقيبتها شيئاً لم يكد بصرى يقع عليه حتى شهقت شهقة اهتز كيانى كله من حدتها فقد كان « كتابى لك » للشاعرة مرجريت بورنابروفانس . وفيما أنا أشخص إليه إستمرت الراقصة السورية فى لهجتها الساخرة المستهترة .

— قلت له إننى لا أستطيع أن أقرأ سطرين من هذا الكتاب لأن

معرفتي بالفرنسية ضعيفة ضعفاً مخزياً » وصارحته بأنني أخشى أن يرى بعض من يعرف جهلي هذا الكتاب في حقيبتي فيسخرون مني ولكنه قال لي « لقد احتطت . ستجدين ترجمة عربية لأهم ما في الكتاب » — ونفثت دخان سيجارتها ثم قالت ساخرة — والنبي ما فتحته . . أنا فاضية !

أتدري ماذا وجدت في داخل تلك النسخة من « كتابي لك » يا سيدي ؟

وجدت رسائلي كلها . . . الرسائل التي كنت قد أرسلتها إليه موضوعة وسط صحائف الكتاب الذي كانت تحمله الراقصة السورية في حقيبتها .

ومادت الأرض تحت قدمي وأخذت أشباح المدعوات في أثواب السهرة بحليهن البراقة تبدو أمامي كأنها أبالسة تحمل أسواط الجحيم وتلهب بها جسمي .

وتبينت الخديعة الكبرى . ولمست بيدي اللتين طالما تناولتا يدي أحمد لكي أنهال عليهما تقبيلا نفاق المجرم الأثيم . وخطر لي أن أخرج لأستنجد واستغيث . وخيل إلى أن أنشب أظافري في عنق الراقصة التي تعاشر الرجل الذي اخترته من بين الرجال أجمعين لكي أهبه ثقتي كلها ولكي أضع تحت قدميه قلبي وسمعتي ومستقبلي .

ولكن قواي خانتني فهويت إلى أقرب مقعد . واستطعت بعد جهد عنيف أن أستجمع شيئاً من شجاعتي وأن أتذكر أنني في حفلة زفاف لا يجب أن أشوهها بإثارة تلك الفضيحة . وأخيراً تمكنت من أن أتكلف إبتسامة فاترة

وأن أسأل الراقصة فى صوت ضعيف أن تعيرنى الكتاب لأقرأه فأجابتنى وهى تولينى ظهرها وتتقدم لإلقاء إحدى أغانيها المبتذلة .

— تفضلى . أننى لا طاقة لى على احتمال هذا الكلام الفارغ !

ثم عادت ترسل ضحكاتها الثملة المستهترة واختفت بين صفوف المدعوات وأسرعت بالعودة إلى منزلى لكى ألزم الفراش فريسة مرض عصبى لم يستطع الأطباء له علاجاً .

. . . .

إننى فى هذه الرسالة التى أ كتبها إليك نقلت نص رسائلى إلى أحمد من الأصل الذى أعيد إلى عن طريق الراقصة التى فضلها واختار أن يعاشرها دونى . ولقد انقضت سبعة أعوام على ذلك الحادث ولكننى لم أنس شيئاً من تفاصيله .

قلت لك فى مقدمة هذه الرسالة إن الذى أوحى إلى بكتابتها إلى أننى انتهيت من قراءة قصـة انجليزية استعرتها من مكتبة جمعية الشابات المسيحيات عنوانها « كل الرجال كذابون » All Men are Liars . وأنا أعتقد أن هذه الفكرة . بل هذا الإيمان بنفاق الرجال يجب أن يكون رسالة كل امرأة شقية .

إن « كتابى لك » لمرجريت بروفانس وأمثاله من الكتب التى تفيض عبادة للرجل وتأليها له لا يجب مطلقاً أن تتداوله أيدى الفتيات . اللهم إلا إذا صح أننا نعيش فى زمن يؤله فيه المنافقون !

إننى أتقدم الآن إلى السابعة والعشرين من عمرى . لا زلت محتفظة بالكثير من فتنتى ولكننى موطدة العزم على ألا أشارك أى رجل بقية حياتى... لن أتزوج ... أتسمعنى؟ لن أتزوج لأننى أرفض فى إباء وأنفة أن أحمل اسم أى رجل . سأعيش هكذا فى هذه الشرفة المطلة على طريق الهرم أكتب إليك و إلى غيرك أندد بنفاق الرجال وأحذر الفتيات عاقبة الخديعة الكبرى متحملة ذلك الهمس الذى يتردد على شفاه خالتى وصديقاتها كلما رفضت شاباً تقدم بطلب يدى . الهمس بكلمة « مجنونة ! »

أفضل أن يصفنى أهلى بالجنون على أن أجارى الرجال فى نفاقهم . لا أريد أن أهب جسمى وقلبى لرجل آخر وأن أخفى عنه ذلك الغرام النذل الذى أحيانى فيه رجلى الأول والأخير . . . إذا كان هذا يعد جنوناً فأنا راضية سعيدة .

شارع الهرم فى ديسمبر سنة ١٩٤١ — حلمية



ليـــلة مسممة

فى يوميات

١٨ يناير سنة ١٩٤١

— إيه ! إننا دفناه سوياً !

لا تزال هذه الكلمات ترن فى أذنى كأثر باق من سهرة الليـلة الماضية فى الشقة الصغيرة التى استأجرها صديقى مراد بإحدى العمارات الكبيرة بشارع دو بريه .

إنها إحدى ليالينا الحمراء النادرة

لقد بدأنا بجلسة « الشله » المعتادة حول إحدى موائد « الرصيف » فى مقهى «فنكس» بشارع سليمان باشا فطالعت أخبار (المقطم) المحلية مطالعة سريعة خاطفة وتجاذبت مع مراد وإسماعيل بضع أحاديث عن حركة التنقلات الأخيرة فى المصلحة وعن العلاوات الاستثنائية التى ينتظر منحها فى الميزانية الجديدة . ولما طال الحديث عن ذلك ملت على أذن مراد وسألته :

— ماهو برنامج السهرة ؟ — فابتسم ابتسامته الماكرة ثم أجابنى

— على فيض الكريم ! لقد سألت « بنايوتى » عما إذا كان قد طلبنى أحد تليفونياً فقال لى « أبداً » . لا تخف سوف تفرج الآن !

وأخذ مراد يلتفت بين كل لحظة وأخرى إلى جهـة الكشك الخشبى الذى وضع فيه تليفون المقهى و يتأهب واقفاً كلما دق جرس ذلك التليفون

— إن أقبل بنايوتى إلى أحد الزبائن الجالسين فى المقهى ليجيب طلبه — ظاناً أن هناك من يستدعيه فى التليفون حتى أهاج أعصابى .

وانقضت ساعتان تمتعنا أثناءهما بالنظر من بعيد إلى المارات أمامنا على الرصيف . ذاهبات إلى إحدى دور السينما . أو عائدات إلى دورهن بعد انتهاء عملهن فى المحلات التجارية العديدة المتناثرة على جانبى شارع سليمان باشا . وفجأة أشار مراد إلى فتاة قاتمة السمرة مرت من أمامنا خيل إلى أنها لابد أن تكون راقصة فى إحدى مسارح روض الفرج . أو صالات شارع الباب البحرى لحديقة الأزبكية . وقال لى فى لهجة متحمسة نشوى

— إن خيرية التى حدثتك عنها تشبه هذه الفتاة .

وأخذت أستعيد فى خيالى ذكرى أسماء النساء التى اعتاد صديقى مراد أن يرددها بعد ظهر كل يوم عند التقائنا فى « فنكس » فلم أذكر أنه حدثنى مرة عن خيرية ، وقلت له وأنا أنقل بصرى بين ساقى الفتاة المارة ووجه مراد فى ابتسامة ساخرة .

— من هى خيرية هـذه ؟ إننى لا أذكر أنك حدثتنى عن فتاة تدعى بهذا الاسم — فرفع يده ثم دق بها على ساقى دقة قوية وهو يقول عابساً :

— فاتك نصف عمرك . ألم تر خيرية ؟

— لا

— كيف ؟

— هكذا ! لم أرها

— إذن فأنت لم تر شيئاً جديراً بالتحدث عنه !

— إذا كانت حقاً كتلك الفتاة التى مرت منذ برهة فإن على أن أشكر الظروف التى لم تمكنى من رؤيتها . أهذه خلقة تستحق أن ينظر إليها !

— يظهر أنه لم يؤن الأوان لكى أغير رأيى فيك ! ألا تروقك هذه الفتاة ؟ . ماذا تريد إذاً ؟ . . . امرأة بيضاء مثل «لهطة» القشطة . ذهبية الشعر كالجنيه . زرقاء العينين . . . لا فائدة من صقل ذوقك لأنك فلاح !

فضحكت عالياً ثم قلت له :

— إذاً احتفظ بها وحدك .

— إننى مصمم على أنك [illegible]. إنك لازلت متأثراً بعقلية أجدادك من أعيان الريف المص[illegible]ا يرحلون إلى « استامبول » ليعودوا متأهلين بذلك النوع [illegible] النساء ذوات البشرة الناصعة البياض . ولكنك نسيت أن هذا عهد انقضى ، وذوق اندثر . لقد كان لهم عذرهم لأنهم لم يكونوا يرون فى قراهم إلا بشرة القرويات القاتمة السمرة . أما نحن الآن فإننا نعيش فى عهد تقذف فيه كل سفينة تصل إلى الإسكندرية أو بورسعيد مئات من شقراوات قرى المجر و بولونيا و يوجوسلافيا حتى أصبح يخيل إلىَّ كلما مررت [illegible]ل فى الإسكندرية أو شارع عماد الدين فى القاهرة واستعرضت [illegible]شقراء إننى فى بودابست !

وكان إ[illegible] شفته السفلى فى حركة اشمئزاز وتأفف . ففضلت أن أسكت لئلا [illegible] وأن « الشلة » كانت منذ زمن طويل قد

اعترفت لصديقنا مراد عبد العزيز بالزعامة فى المغامرات الغرامية التى استطاع أن يوفق فى أكثرها رغم المرتب المتواضع الذى كان يتقاضاه من مصلحة الإحصاء والذى لم يكن يتجاوز العشرين جنيهاً . والذى مكنه مع ذلك من التفوق على أعضاء «الشلة» ومعظمهم يشغلون مناصب أعلى من منصبه مرتباً كما أنهم نالوا قسطاً من التعليم لم ينله هو .

وأخيراً أقبل « بنايوتى » وهمس فى أذن مراد .

— التليفون يا مراد بك

وقام مراد مهرولا . وغاب بضع دقائق ثم عاد ومال على أذنى قائلا بعد أن اتخذ مجلسه السابق :

— إن رزقى دائماً بين ساقى . لقد حدثتنى « ريرى » واتفقنا على اللقاء فى الساعة العاشرة . سنتناول العشاء معاً .

فسألته — ومن هى « ريرى » هذه ؟

— خيرية التى حدثتك عنها — وبعد أن سكت قليلا سألنى هامساً — أتصحبنى ؟

وتذكرت أننى كنت قد اعتزمت أن أعود مبكراً إلى المنزل لإتمام قراءة قصة مسرحية للكاتب الفرنسى ستيف باسور اسمها (القيد) مثلت عام ١٩٣١ على « مسرح انطوان » بباريس ويظهر أن مراداً قد لحظ ترددى فجمع جرائده ووضع طربوشه ، ثم صفق بيديه ليستدعى « بنايوتى » فى حركة تهديد صامتة وهو يقول :

— اذهب إلى منزلك مبكراً لأنك لا تصلح إلا لذلك .

ووجدتنى منساقا إلى أن أقول له :

— لا . إننى أفضل أن أقضى السهرة معك .

ثم ذهبنا سويا إلى «باريزيانا»

وأقبلت خيرية فى الموعد الذى حدده لها صديقى مراد . دخلت بسرعة من إحدى الأبواب المطلة على شارع ألفى بك وقد ارتفع شعرها «الأ كرت» فى فوضى كريهة وأخذت تلوِّح بساعديها فى حركات مبتذلة أثارت دهشة الموجودات من الأجنبيات . وتدلت السيجارة من شفتها وتصاعد دخانها من أنفها . فلما وصلت إلى مائدتنا صاحت بصوت عال :

— لم اخترتما هذه المائدة المنعزلة ؟ . إننى أفضل أن نجلس فى الخارج مع الناس « على وش الدنيا »

وقبل أن تجلس اختطفت طربوشينا . ثم أسرعت إلى إحدى الموائد الموضوعة على الرصيف بشارع ألفى بك وجلست قبلنا وهى لاتزال تنفث دخان سيجارتها من أنفها بشراهة مخيفة ، وأحسست فى بادىء الأمر بشعور من الخيبة المرة فى خيالى عن الفتاة التى هاجمنى مراد بسببها قُبل ذلك بمدة قصيرة .

وصفق مراد يطلب لنا ثلاث كؤوس من الويسكى ، ولم يكد الجرسون يضع كأسها أمامها حتى رفعته إلى فمها وهى تقول :

— إننى فى غاية الظمأ ! — ثم أفرغتها فى جوفها .

ودهشت لذلك . وزادت دهشتى عند ما رأيتهـا تمد يدها إلى «طبق الجنبرى» الذى قدم لنا إلى جانب الخمر وتتناول بأصابعها قطعة منه وضعتها فى فمها ثم رفعت نفس الأصابع إلى رأسها وهرشت فى شعره بضع مرات .

واشتد ذعرى عند ما رأيتها تصفق بنفسها وتطلب كأساً أخرى وهى تقول — ما هذا الكسل ! إننى أخشى أن أتثاءب إذا أطلت الجلوس معكما

وأقبل الجرسون يحمل «دوراً» آخر . والتهمت خيرية كأسها بنفس السرعة وبدأت ضحكاتها تعلو وترتفع . وهى تتبادل مع مراد بضع أحاديث مقتضبة سريعة عن رغبتها فى الالتحاق كراقصة بإحدى الملاهى . وكنت إذ ذاك أنصت إليها صامتاً وأنا أتلفت حولى خلسة لألاحظ فى خزى أثر ضحكاتها العالية . وإشاراتها الغليظة . على وجوه القريبين منه وكأنها لحظت ذلك فالتفتت إلىّ فجأة وقالت وهى تنحنى على المائدة وتدنى وجهها من وجهى .

— متى يحن الله عليك بكلمة تقولها ؟

ولاحظت أن مراداً قد همس فى أذنها بكلام لم أفهمه وفجأة رأيتها تنهض من مقعدها وتتقدم إلى غرفة التليفون ثم عادت إلى متهللة الوجه وهى تقول :

— لاتحمل هم الدنيا على رأسك . لقد دعوت إحدى صديقاتى ... بنت مدهشة — ثم التفتت إلى مراد وقالت — إنك تعرفها يا مراد ... احسان . التى كانت معنا فى سهرة قهوة الحمام .

وطغى على إذ ذاك إحساس بأننى لم أثر اهتمام خيرية إلى حد أنها تبرعت بأن تقدم لى امرأة أخرى دون أن تنتابها الغيرة العادية التى تنتاب النساء فى مثل تلك المواقف .

أيمكن أن أنحط إلى حد ألا تهتم بى حتى امرأة من صنف خيرية ؟

واستعرضت فى ذاكرتى إذ ذاك بعض الملاحظات التى طالما أبداها صديقى مراد على طريقة تفكيرى . الملاحظات التى تدور غالباً حول انتقاد انهما كى فى المطالعة وعدم اعتنائى بتفهم عقلية المرأة على حقيقتها على حد تعبيره الذى كان يكرره دائماً « إن إرهاق بصرك فى قراءة مئة قصة لا يدنيك من فهم عقلية المرأة أكثر منى بعد علاقة أسبوع واحد مع أية امرأة »

وأقبلت بعد ذلك تلك المرأة التى استدعتها خيرية بالتليفون والتى اسمها إحسان . وتعمدت إذ ذاك أن أستبعد من خيالى ذكرى (القيد) لاستيف باسور وغيرها من قطع الأدب الفرنسى التى طالما تذوقت لذة الحياة بين أبطالها وبطلاتها وأن أتحرر من كل ذلك لأحقق نوعاً من الفوز فى سهرة الأمس

وامتدت يدى إلى الكأس التى كانت أمامى فالتهمتها . وصفقت أطلب أخرى وثالثة ورابعة . وحاولت «إحسان» أن تستميلنى بعد أن تبينت من طبيعة الموقف أنها أقبلت لكى تقدم إلي ولكنى تعمدت أن أهملها وأن أثير اهتمام خيريه . وانتصف الليل . وأشار مراد بالانتقال إلى شقته الصغيرة بشارع دوبريه فوافقت وانتقلنا جميعاً الى هناك . وأسر مراد فى أذنى أثناء الطريق .



— أليست خيرية مدهشة !

وخيل إلىّ بعد أن تناولت الكأس السادسة فى شقة مراد أن خيرية أصبحت مثالاً لنوع أصيل من الجمال لم يكن لى عهد به من قبل . وتعمد مراد أن ينفرد بإحسان فى غرفة المائدة وأن يتحدث إليها عن مسألة يظهر أنها كلفته بها خاصة بتعيين أحد أقاربها فى إحدى وظائف الخدمة السائرة بمصلحة الإحصاء . وأخذت قسمات وجه خيرية تتجدد أمام عينى وتبدو أكثر فتنة وإغراء . بدأت أعتقد أن شفتيها المتدليتين تعبران عن أنوثة حية غنية . وأن شعرها الأكرت الهائج الذى تسوده الفوضى التى أثارت سخرية الأجنبيات اللاتى كن يتناولن العشاء فى « باريزيانا » إنما يدل على اعتزازها به . وأخذت أشمئز من ذكر الليالى التى قضيتها عند ما كنت لا أزال طالباً بمدرسة التجارة العليا إلى جانب نبيلة ابنة عبد الواحد بك منير . أحد أصدقاء والدى وجارنا القديم بشارع الشرفا بالعباسية . والتى كنت أدفن أثناءها أصابعى فى شعرها الأماس وأطيل النظر إلى عينيها

وأطلت النظر إلى عينى خيريه ... وتبينت أثر وشم قديم على صدغيها أزالته بعنف ترك آثاراً ظهرت بعد أن ذابت الأصباغ التى كانت قد تراكمت على وجهها . وخيل إلى أيضاً أن ذلك الوشم القديم ضرورة من ضروريات ذلك الجمال الأصيل وأنها أخطأت بإزالته لأنه كان يميزها عن غيرها ويدل على أنها كانت تدفع به حسد الحاسدات !

ورفعت خيريه كأسها ... وأدنتها من فمها ثم ألصقتها بشفتيها ، وأخذت ترشف ما فيها ببطء ثمل ... وتهدل شعرها إذ ذاك على كتفيها العاريتين

فزاد إعجابى بها . . . ولمعت عيناها بالدموع لأنها كانت قد أفرطت فى الشراب . فتوهمت أنها تأثرت من إطالتى النظر فى ذلك الإعجاب الصامت إلى وجهها . وقلت لها فى رجفة ظاهرة

— أنت مدهشة ياريرى — وعندئذ أجابتنى وهى ترش بقية الكأس على وجهى .

— إيه ! لمن هذا الكلام ! إننا دفناه سوياً !

وسألتها

— كيف ؟

— ألا تعرف كيف ؟

— لا والله — فتكلفت تقليدى وقالت فى لهجة أضفت عليها كل سخريتها

— إننى لا « آكل » من هذا الكلام . أتريد أن توهمنى أنك لا تعرف امرأة أخرى ؟

— أبداً

— كذاب . عند ما رأيتك الليلة فى « باريزيانا » وقد وضعت خدك على راحتك . وأطرقت إلى الأرض . وأخذت أهدابك ترتعش وأصابع يدك الأخرى تجذب غطاء المائدة فى عصبية ظاهرة قلت لنفسى أن صاحبنا عاشق و « تعبان شوية » والآن تريد أن تفهمنى أنك أحببتنى فجأة — ثم توقفت برهة وقالت — أنا لا أعرف فن تسلية العشاق !

ورنت فى جوف الغرفة ضحكة ساخرة ثملة . . . تركتنى خيريه على أثرها وخرجت !

لتلحق بمراد فجمعت أطراف ثيابى واتجهت أنا الآخر إلى باب الشقة ...
وحاول مراد أن يستبقينى ولكننى أفهمته أننى متعب وأننى يجب أن أستيقظ مبكراً فى الصباح ...

لا تزال كلماتها ترن فى أذنى « إيه ! لمن هذا الكلام ! لقد دفناه سوياً ! »

إنها تعتقد أننى أخدعها وأننى خدعت من قبلها أخريات. وهى لا تسلم مطلقاً بأن تكون فريسة ذلك الخداع الذى احترفته !

ولكن أهذا كله صحيح ؟

لقد بدأت بمحاولة خداعها عندما لاحظت أنها لا تهتم بى كما اهتمت بمراد ولكننى بعد ذلك تبينت أننى لم أكذب عليها. وإنما كنت أكذب على نفسى

إن هذه المرأة التى تعرض نفسها للبيع فى سوق اللهو العابث ثم تتمنع حتى عن تصديقى لابد وأن تكون مغترة بنفسها إلى حد كبير.

أذكر الآن ملاحظة قديمة لصديقى مراد « إن من أسهل الأمور خديعة فتاة من أسرة طيبة . درجت على طهر الحيـاة العائلية ولم تدرس نفاق الرجال . إنما المشكلة العصيبة هى المرأة التى تجالس كل ليلة أكثر من رجل وتحتك كل يوم — بحكم عملها فى المسرح أو الملهى — بأشكال وألوان مختلفة من طباع الرجال »

أفكر فى امرأة الأمس . أوه! امرأة اليوم — بتعبير أدق — لأننى رجعت إلى المنزل فى الساعة الثالثة صباحاً .

٢٠ يناير

صدفة عجيبة !

لقد التقيت الليلة بنبيلة ابنة جارنا القديم عبد الواحد بك منير . أو التقت نظراتنا على الأقل .

كنت أشاهد التمثيل فى مسرح « برنتانيا » . وكنت أجلس فى إحدى المقاصير اليسارية عند ما لمحت نبيلة . كانت جالسة فى المقصورة التى إلى جانبى تماماً . فى ثوب بنى اللون . وقد شاعت إبتسامة هادئة على شفتيها . . شفتيها الغليظتين اللتين طالما « عايرتها » بهما أثناء طفولتنا ولكننى بعد أن افترقنا — فشغل والدها إحدى وظائف وزارة الأشغال فى المديريات وانتقل والدى من العباسية عقب إحالته إلى المعاش — تبينت إنهما « موضة » الجمال الجديدة فى هوليود . . . إنهما رمز الأنوثة عند جوان كرافورد وكنى !

كانت نبيلة مع خالتها و إحدى بنات خالتها فلم أستطع أن أحييها ولكننى لاحظت أنها نقلت مقعدها بحركة رشيقة خفيفة لكى تواجهنى .

واتسعت ابتسامتها قليلا . وتدفقت إلى رأسى ذكريات جلساتنا الطويلة فى الظلام على أرض « غرفة البيانو » عند ما كانت خالتها تحضر لزيارة والدتى منذ بضعة أعوام !

لقد كبرت نبيلة . ونما جسمها . وطالت قامتها . ونضج صدرها . وأختفى شعرها الأملس تحت « التوك » البنية اللون التى كانت تضعها على رأسها فى ميل شديد كتاج جميل .

وتركت يوسف وهبى يصرخ على المسرح وأخذت أطيل النظر إلى نبيلة لم تستطع المسكينة أن تطيل النظر إلى هى الأخرى . . كانت تخشى أن تلفت نظر أسرتها . وظهر الاضطراب عليها جلياً لأنها كانت ترفع ساعديها وتنقل « التوك » الموضوعة على رأسها فى حركات عصبية ثائرة !

وخيل إلى أنهـــا تذكرت ماضينا وجلساتنا ملتصقين وقد أخذت أصابعى تعبث بشعرها .

وابتسمت لأننى خطر لى أنها كانت تحمى شعرها بيدها خشية أن أنسى فأمد أصابعى إليه !

وابتسمت هى الأخرى كأنها فهمت سر ابتسامتى . وعشنا لحظات أخرى أذكت فى صدرينا غرامنا الطفل البعيد . . .

ولما انتهى التمثيل نهضت نبيلة متثاقلة . حتى خرج من كن معها . وأحنت رأسها بخفة ثم حركت شفتيها حركة خفيفة كأنها تقبلنى ولحقت بهن !

ولما عدت إلى المنزل وجدتنى أطيل التفكير فى نبيلة . . كنت قد نسيتها بعد أن انقضت بضعة أعوام لم أرها فيها . ولم أسمع عنها إلا أنها خطبت لأحد أعضاء النيابة الشبان .

إن نبيلة خيالية النزعة . . إنها ولدت شاعرة دون أن تعرف ! ولا أظن أنها قبلت الزواج من ذلك الشاب إلا بعد أن وثقت من أنها ستهب جسمها لمن وهبته قلبها

ولكن ... هل لا زالت تحبه ؟

إننى أحس برغبة عجيبة فى أن أعود إلى سابق علاقتى بها .. لقد كانت فاتنة الليلة .. إن أنظار الذين كانوا فى المقاصير على الجانبين لم تتحول عنها كما أن رؤوس الجالسين على المقاعد الأرضية كانت ترتفع بعد هبوط الستار عقب كل فصل متجهة إليها ولم تتحول عنها كل فى مرة إلا بعد الدقات الثلاث التى تسبق رفع الستار . أريد أن أسمعها ثانية ولكن كيف ذلك . ؟

ووجدتنى أمد يدى إلى مسرحية (القيد) وأتابع قراءتها إلا أننى ذعرت عند ما قرأت هذا الحوار

(ارمانس — أجل . . إننى لم أعد امرأة تصلح لك . . سأعترف لك بأن روجيه عشيقى منذ شهرين

سارتيج — أتجرؤين على أن تواجهينى بذلك ؟

ارمانس — « بجرأة » إننى أجرؤ حتى على أن اصارحك بأننى مزهوة لأننى عشيقة روجيه !)

ولم أستطع أن أتابع القراءة فألقيت بالكتاب بعيداً ... وأخذت أتخيل ما يمكن أن يحدث لو أننى صادفت نبيلة فى مكان ما وحاولت أن أحادثها عن غرامنا القديم فجابهتنى بأنها لم تعد لى وأنها تحب شخصاً آخر !

كيف يمكن أن أضمن وفاءها لى سبعة أعوام لم أقابلها فيها ولم أتحدث إليها . ماذا حدث لى ؟

لم أشك لحظة فى أن نبيلة كانت لى . . . فلم أشك اليوم ؟ ألا يجوز أنها رفضت الزواج من عضو النيابة الشاب لأنها لا زالت تحفظ فى صدرها ذكرى غرامنا القديم ؟

٢١ يناير — بعد منتصف الليل :

لم أكن أتوقع قط أن أسمع صوت نبيلة منذ بضع دقائق عقب عودتى من سينما رويال .

كنت أشاهد « الفيلم » المعروض الليلة فى حفلة السواريه مع صديق لى اعتاد الا يجلس إلا قريباً من الشاشة على إحدى المقاعد الأرضية . وعدت إلى المنزل دون أن يخطر لى أن نبيلة قد رأتنى هناك . وعند ما كنت أجتاز الردهة التى وضع فيها التليفون سمعته يدق فأسرعت إليه . ولشد ما دهشت عند ما سمعت صوتاً يقول لى فى رقة حنون .

— إن عهدى بعينيك فى اتساع « فناجين » القهوة . ما ذا جرى لك الليلة يا حمدى حتى تختار هذا المقعد القريب من اللوحة فى قاعة السينما ؟

وسكتت برهة ولكنها لم تلبث أن قالت .

— ألا تعرف من أنا ؟

فتمتمت متلعثماً وأنا بين الشك واليقين .

— من ؟

— أنسيت الطوق الخشبي الذى كنت تدفعه أمامك ثم تعدو خلفه وعيناك تتنقلان زائغتين بين نوافذ منزلنا لتتحقق مما إذا كنت قد وقفت فى إحداها ؟ لم كانت عيناك من الحدة إذ ذاك إلى درجة إنك كنت تتبينني حتى من خلف « الشيش » الخشبي المغلق ؟ — فصحت .

— نبيلة !

— أجل نبيلة . كيف حالك يا حمدى ؟ لقد لاحظت الليلة كما لاحظت عند ما رأيتك فى مسرح برنتانيا أنك كبرت وأصبح لك شارب ولحية محلوقة ! أتذكر يوم دخل عمى شاكر بك أبوك فوجدك واقفاً فى الحمام على ظهر « طشت الغسيل » وقد أخذت تشب على مشطى قدميك لكى تصل إلى مستوى المرآة وأنت ممسك بسكين المطبخ والصابون يغمر وجهك فمنعك من محاولة حلاقة لحيتك التى لم تكن تنبت فيها شعرة واحدة ؟

ودهشت لانطلاق صديقة أيام الطفولة فى شارع الشرفا ذلك الانطلاق العجيب فى حديثها معى وقلت لها فى صوت لم يخل من تأثر .

— أهكذا يا « بيبى » تقضين كل هذه المدة الطويلة دون السؤال عنى ؟ ما كان يخطر لى قط أنك ستخونين « الغريبة » التى كنت أسرقها من « نملية » منزلنا وأخفيها فى حقيبة كتبى لنتقاسمها خلسة !

فأرسلت ضحكة عاليــة . . ضحكة مرحة طاهرة . رنت فى أذنى وسط سكون الليل كأنها نغمة موسيقية هادئة حملها هواء البحر من سفينة مبتعدة فى ليلة شعرية مقمرة !

وتذكرت فجأة إذ ذاك تلك الضحكة التى شيعتنى بها خيرية. المرأة ذات الشعر « الأكرت » التى قدمها إلى صديقى مراد.. أى فرق شاسع بين الضحكتين !

وامتلأ صدرى حقداً على الليلة التى عشتها إلى جانب تلك المرأة وتكلمت نبيلة بعد فترة صمت قصيرة فقالت .

— لست أدرى من منا هو الذى خان تلك الذكريات ! — وزفرت زفرة خافتة ثم تابعت كلامها — إنك لم تكلف نفسك مرة عناء المرور من بعيد أمام باب بيتى لكى أعرف أنك تذكر يوماً واحداً . بل ساعة واحدة من الساعات التى عشناها معا فى شارع الشرفا . . . تعرف . لقد لمحتك ذات مرة فى سيارتك بشارع فؤاد الأول وكنت إذ ذاك أهم بالدخول إلى « شيكوريل » فتعمدت أن أعرف رقم سيارتك . وظللت منتظرة إلى أن ابتعدت بها. بعد أن استعملت « الكلاكسون » بضع مرات ساعدتنى على حفظ صوته . ومنذ ذلك اليوم وأنا أعلل نفسى بأنك ستفكر يوماً ما فى المرورأمام بيتى و إطلاق صوت « الكلاكسون » فأهرع إلى الشرفة لأطل عليك . . . وأنتظرت سنة . وسنتين بل ثلاث سنوات . إلى أن علمت أنك أبدلت سيارتك بأخرى لها « كلاكسون » يختلف صوته عن الصوت الذى كانت قدوعته أذنى . وفقدت الأمل فى أن أراك بعد أن انتقلنا من « الفيلا » التى كنا نسكنها فى « هليو بوليس » والتى لم تكن تعرف لى مقراً غيرها .

وطردت من خيالى إذ ذاك ذلك الحوار الذى أثار ذعرى ذات ليلة لدى قراتى لمسرحية (القيد) . الحوار الذى دار بين بطلة القصة التى خيل إلى رجلها أنها لا زالت محافظة على حبها له فصارحته فجأة بأنها تحب رجلاً آخر و بأنها فخورة بأن تصبح عشيقة ذلك الرجل الآخر !

لم يعد هناك ما يخيفنى من نبيلة !

وسادت فترة صمت سمع كل منا أثناءها تهدج صدر الآخر .

وتنهدت نبيلة تنهيدة طويلة حارة ثم قالت فى صوت عميق .

— كأننى أحلم . . . إننى لا أزال أذكر الليالى التى كنت أحاول فيها النوم فيقهرنى الأرق . وعندئذ أغادر غرفة نومى إلى شرفتى المطلة على شارع السرايات فى منتصف الليل . وقد هدأت أنفاس الضاحية القابعة تحت قدمى الصحراء . وفجأة يبدو من بعيد نور سيارة من السيارات الخفية التى أعتدنا أن نحس بتسللها فى ذلك الطريق وهى تتحرك ببطء كأنها عبرت الصحراء فى رحلة طويلة أرهقتها . فتخطر أنت ببالى . و يخيل إلى أنك قادم نحوى . وأنك فى حاجة إلى . وأتدلى من الشرفة لأدقق النظر إلى الطريق المظلم . ونور السيارة الخافت يقترب . شيئاً . فشيئاً . إلى أن يصل إلى باب بيتى فأمد راحتى يدى الإثنتين كأننى أريد أن أختطفك إختطافاً ولكننى أتبين إذ ذاك أنك لم تأت بعد . . . وأحياناً — دائماً فى ظلام ليالى الأرق — كنت أهبط درج « الفيلا » وأسير فى حديقتها لا يسترنى الا ثوب من « ثياب الغرفة » إلى أن أصل إلى الباب فأفتحه وأقف

خلفه أنتظر وقد تخيلت أنك ستترك سيارتك على مقربة من البيت ثم تتقدم على أطراف أصابعك إلى باب الحديقة الذى تعرفه لتلقى بكل جسمك إلى ذراعى . ولكننى فى كل مرة كنت أرى السيارة تمر دون أن تقف ببابى. وكثيراً ما كنت أسمع ضحكة صادرة من جوفها. ضحكة فتاة أخرى غيرى تجلس إلى جانب رجل آخر غيرك يا حمدى فأعود إلى غرفة نومى . أوه ! كم من ليالٍ قضيتها حتى الصباح دون أن أذوق طعم النوم . . . أما أنت . من يدرى ماذا كنت تفعل فى الوقت الذى كنت أذكرك فيه ؟

وشعرت بنوع من الإشمئزاز يسرى فى جملتها الأخيرة . وتأثرت لها وهى تسرد لى ذكريات تلك الليالى التى كانت تقضيها تذكر غرامنا القديم .

وتذكرت تواً ليلة كنا قد شاهدنا فيها حفلة زفاف أقامتها إحدى الأسر المتوسطة الحال بشارع الشرفا . وقد وقفت بجانب نبيلة فى شرفة منزلنا إذ كانت والدتها قد أقبلت لزيارتنا . فلما ارتفعت زغاريد النسوة وتعالت موسيقى الطبلة و « الدربكه » التفتت نبيلة إلىّ وقالت وهى تمسك بيدى وتضغط عليها

— أتعرف ماذا أفعل لو أرغمنى أهلى على الزواج بغيرك ؟

— ماذا يا « بيبى » ؟

— أخرج بالثوب الذى أعد لعرسى . فأقابلك ونقضى معاً أطول وقت ممكن ثم أتركك لألقى بنفسى تحت أول ترام يقابلنى فى الطريق

فشهقت وسألتها

— هل جننت ؟ لم هذا ؟

— لأننى لو انتحرت بإلقاء نفسى من النافذة سيفهم الناس أن للانتحار سبباً شائناً وأنا لا أريد أن يخفى أهلى وجوههم خزياً إذا ما ذكر اسمى أمامهم بعد موتى . أما الترام . فإن أول ما يتبادر إلى الذهن أن الحادث وقع قضاء وقدراً .

تذكرت ذلك وأنا أستمع إلى صوت نبيلة فى تلك الساعة المتأخرة من الليل . وتذكرت أننى حاولت ليلتئذ أن أثنيها عن عزمها الجرىء فلم أفلح وعندئذ خطر لى خاطر شرير فنهضت واقفاً ثم وضعت قبضة يدى فى خصرى وقلت لها وأنا أرفع رأسى وأنظر إليها كما لو كنت أنظر إلى جارية فى حريم حاشد بالمئات من مثيلاتها

— وإذا كنت أنا أوافق على أن تتزوجى رجلاً غيرى !

فحملقت المسكينة فى وجهى طويلا ثم ارتعدت أهدابها وأجابتنى فى صوت مرتجف

— كيف ؟

— كما أقول لك . أنا أفهم أن تفكرى فى الانتحار لو أن زواجك من غيرى سيحيل حياتى إلى جحيم ولكن . . — وخانتنى الشجاعة إذ ذاك . وابتسمت نبيلة وهى تستمع إلى ابتسامة أليمـة مرة ثم قالت محاولة أن تستحثنى على متابعة الكلمات التى وجدت من نفسى الجرأة على التفوه بها

— ولـكن ماذا ؟

وأحسست بأننى تسرعت . وخيل إلى أن كلماتى قد مزقت قلبها . ومدت يدها إذ ذاك فأخرجت منديلها الصغير من حقيبتها ثم مرت به فى بطء على أعلى صدرها كأنها تجفف دماً يسيل بغزارة !

وفـكرت فى أن أدنو منها ثم أعتذر وأن أصارحها بأننى لم أكن أقصد قط أن أؤلمها ذلك الألم الهائل . ولـكننى ترددت وكنت أشعر بلذة خفية فى أن أدعها تتألم . . . وتشقى بسببى !

وفضلت أن أدير ظهرى وأن أعود إلى النافذة أشرف منها على حفلة الزفاف التى كانت أسرة الجيران الرقيقة الحال قد أقامتها لابنتها !

وقاومت نبيلة حتى استطاعت أن تسترد كبرياءها فنهضت ثم اقتربت منى وقالت كأن شيئاً لم يحدث بيننا

— يجب أن أعود إلى البيت الآن ياحمدى

فسألتها فى لهجة كأننى لم أفعل ما يوجب استياءها

— لـماذا ؟

— لأننى لم أنته بعد من مذاكرة دروسى

وغادرت الغرفة مسرعة خشية أن تخونها شجاعتها فتبكى . لأنى استطعت بسهولة أن ألاحظ أثر الدموع فى صوتها عند ما نطقت باسمى . .

وانتظرت أن تمر بمنزلى فى اليوم التالى ولـكنها لم تفعل . وخيل إلى أننى أستطيع ألا أعبأ بهـا حتى تمر ، ولـكننى لم أستطع . واضطررت فى

المساء أن أتظاهر بالرغبة فى السؤال عن والدتى فى منزل عبد الواحد بك الذى كانت زوجته « تيزه » لطفيه هانم صديقتها الحميمة .

ولما رأيت نبيلة سألتها عن السبب فى عدم قدومها يومئذ . وعندئذ رفعت كتفها وهزتها هزة خفيفة ثم أجابتنى

— لا شيء . كنت مشغولة

— أيكفى هذا لكيلا تحضرى لرؤيتى ؟

— أجل ؟

— منذ متى

— منذ أمس

— لماذا ؟

فلم يمكنها أن تتابع التظاهر بالهدوء وانفجرت قائلة :

— لأنك كنت قاسياً . . . قاسياً قسوة ثقيلة

وأجهشت بالبكاء

مرت ذكرى تلك الليلة البعيدة على خيالى وأنا أستمع إلى نبيلة . وارتجف جسمى عند ما انكشفت أمامى فى شكل بشع حقيقة القدر الساخر !

لقد كنا نتشاجر منذ سبعة أعوام بسبب توهمها أنها ستحمل اسم رجل آخر . وهو أمر كانت ترتعد لمجرد مروره بخاطرها . وكنت إذ ذاك أدل وأتيه عند ما أراها تتفانى فى التعلق بى والوفاء لى . والتفانى فى إرضائى . ولكن . . . هناك سبعة أعوام طويلة بين ذلك الماضى و بيننا الآن !

ألم تتغير ياترى ؟

وسكت برهة طويلة . . . ولحظت نبيلة سكوتى فلم تزعجنى فى بادىء الأمر . وجرفنى إحساس خفى إلى مجاراتها فى خيالها الرائع الذى كانت تصوره لى بذكر أرقها الأليم فى شرفة منزلها المطل على صحراء هليو بوليس .

وخيل إلى فعلاً أننى كنت أمر أحياناً بسيارتى فى شارع السرايات الذى حدثتنى عنــه . وأننى كنت أقف من بعيد أنظر إليها وهى تضم أطراف ثوبها المنزلى فى الظلام فلما أراها تهبط الدرج وتعبر ممر الحديقة لتتقدم إلى الباب متأهبة لاستقبالى أسرع بالابتعاد . لأننى لم أكن أريد أن أتسبب فى نكبة !

ألم تكن مخطوبة ؟ ألم تنشر الصحف وألم يعلم الناس جميعاً أنها ستحمل اسم ذلك العضو الشاب من أعضاء النيابة ؟ لم ألوث سمعتها بلقائها ذلك اللقاء المريب بعد منتصف الليل فى ذلك المكان القصى كما يلتقى العشاق الهاربون ؟

واستمر ذلك الصمت مدة . وسعد كلانا بالاستماع إلى تهدج صدر الآخر . وفجأة سألتنى نبيلة

— ماذا تنوى أن تفعل غداً ياحمدى ؟ — فأجبتها بعد تفكير قصير

— كما تشائين

— كما أشاء أنا !

— أجل .

— منذ متى ؟ — وأرسلت ضحكة عالية فأجبتها

— منذ زمن طويل يا « بيبى »

— ايه ! — وألقت هـــذه الكلمة الأخيرة فى لهجة حزينة مكتئبة ولــكنها عادت فاستردت لهجتها الطبيعية . واتفقنا على اللقاء بأ كر

٢٢ يناير

عدت منذ برهة من نزهة قضيتها مع نبيلة .

كان كل ما يحيطنا يذكرنا بأيام غرامنا الأول . تعمدنا أن نخلق الجو الذى يحيينا فى ذلك الماضى الجميل . فقد انتظرتها أمام محطة باب اللوق . وركبت إلى جانبى فى سيارتى التى صعدت بنا مسرعة إلى العباسية . . . ومررنا على منزلينا القديمين . ووقفت برهة فى شارع الشرفا والتقت نظراتنا نظراتى ونظرات نبيلة . . ومر صبى من صبية الشارع يعدو خلف طوق يدفعه أمامه فلمعت عيوننا بالدموع . . . وبعد أن تناولنا العشاء فى إحدى المطاعم التى تقوم عند أقصى طريق المرج عدنا إلى القاهرة عن طريق شارع السرايات .

٢٥ يناير

زارنى مراد بمكتبى فى الديوان اليوم وسألنى عن سبب انقطاعى عن التردد على «فينكس» وأكد لى أن «الشلة» قد أقلقها ذلك الانقطاع فلم

أشأ فى بادئ الأمر أن أصارحه بالحقيقة وقلت له إننى مهتم بإنجاز قراءة بعض كتب تلقيتها أخيراً من باريس . فدق على حافة المكتب دقة قوية وصرخ .

— لم هذه العجلة ! عند ما تهرم وتبدأ النساء فى النفور منك تستطيع أن تعيش بين الكتب وقتاً طويلاً . عشرين أو ثلاثين عاماً . . . ثم مال على أذنى وهمس فيها شامتاً .

— أتستطيع أن تخبرنى ماذا أفادتك كتبك التى قرأتها فى محاولتك مع فتاة كخيرية . لم لم تستطع أن تستميلها ؟ أية خيبة !

وتذكرت تواً تلك الفتاة السمراء . ذات الشعر «الأكرت» التى أخفت آثار إزالة الوشم الأخضر من صدغيها بطبقات الكريم الكثيفة . وأحسست بالجرح البليغ الذى كان قد أصاب كبريائى ليلتئذ يتفتح وينزف مرة أخرى

ولحظ مراد ذلك فعاد يهمس فى أذنى .

— إننى لا أخفى عنك أنها سألتنى عنك أكثر من مرة . يخيل إلى أنك أفهمتها ليلتئذ أنك أحببتها حباً جنونياً لأول نظرة . ولذلك رأت أن تدل وتتيه . و بدالها أنك ستتنسم أخبارها وتتعقبها حتى تراها ثانية . أتعرف أننى خدمتك خدمة مدهشة ؟ أفهمتها أنك مشغول هذه الأيام مع فتاة من أسرة كبيرة . ماذا تريدنى أن أقول لها ؟ أيمكن أن أخبرها أنك سجنت نفسك لقراءة بعض كتب سخيفة !

ودق جرس التليفون إذ ذاك فلما رفعت السماعة اتضح لى أنها نبيلة أرادت أن تتفق معى على الموعد الذى سنلتقى فيه هذا المساء .

ولم أكد أعيد السماعة إلى مكانها حتى هز مراد رأسه وقال لى :

— إذاً فأنت حقاً مشغول بأخرى هذه الأيام . أنها لابد أن تكون من فتيات الأسر اللاتى يحدثنك نصف الحديث بالعربية ونصفه بالفرنسية . أكاد أقسم أنها بيضاء . شقراء الشعر . بعينين زرقاوين . وأنها تتوقف بعد كل كلمة لتقول لك فى أدب متكلف « أفندم » و تعود إلى تكرارها حتى تخنق أنفاسك !

ثم سكت قليلاً وتابع حديثه قائلاً وهو ينظر إلى نظرات فاحصة طويلة.

— لقد فهمت الآن السر فى اختفائك منذ بضعة أيام . إننى أعرف هذا الصنف من فتيات الأسر . إذا تعلق بالرجل فليس من السهل التخلص منه . لا يستطيع أن يرى أصدقاءه. ولا يتمكن من أن يهنأ بسهرة طيبة . ولا يجرؤ أن يقابلها وفى فمه رائحة كأس واحدة من «الويسكى» . ويظل محكوماً عليه كلما كان فى مكتبه أن يجيب على أحاديثها « التليفونية » المتتالية التى تطول أحياناً ساعة وساعتين . ولو استأذنها فى إيقاف الحديث برهة لينصرف إلى عمل لانهالت عليه هذه الأسئلة « من الذى دخل عندك الآن . رجل أو سيدة ؟ » فإذا أرتبك ولم يعد يستطيع أن يتبسط فى الحديث معها أمام زواره أو زبائنه أمعنت فى إحراجه وقالت له « إذن أفهم من عندك أنك تتحدث إلى سيدة لكى أصدق أنك استقبلت

رجلا » و إذا عاد إلى بيته فان عليه أن يقدم حساباً عن وقت خروجه . ووقت ذهابه إلى المقهى الذى اعتاد أن يتردد عليه . ولا يكاد يجلس مع أصدقائه حتى يقبل خادم ذلك المقهى ليهمس فى أذنه « ناس يطلبونك فى التليفون » فإذا ذهب ليتحدث إليها وجد المحضر الآتى مفتوحاً باسئلته التقليدية « من معك ؟ ماذا شربت ؟ ألا تكفيك كأس واحدة ؟ هوّ انت بلاعه ؟ » و بعد قليل تعود فتستدعيه وقبل أن يبدأ الكلام تفاجؤه بقولها «لسانك ملووق ! لابد أنك أفرطت الشراب . أريد أن أفهم لم تشرب الليلة منهم هكذا ؟ لا بد إنك على موعد » ولو أقسم بكل ما هو عزيز عليه لما صدقته . وبعد كلمة أو كلمتين تلقى بالسماعة فى عنف كأنها تغلق باب بيتها فى وجه خادم ضبطته متلبساً بسرقة ثم جاء يستعطفها ليعود إلى خدمتها ! و يعود المسكين إلى حيث ترك أصدقاءه وقد بدت الكآبة على وجهه . و يقضى بقية السهرة مطرق الرأس لا يكاد يقوى على رفع كأسه إلى شفتيه . فإذا رضيت عنه بعد ذلك وقابلته . لا تسأله عن صحته أو عمله بل تعمد إلى نزع منديله من جيب سترته لتتبين ما إذا كانت فتاة أخرى قد تركت فيه آثار « أحمر » قديم أو حديث . ثم تدنى عينيها من شفتيه لتبحث عن نفس تلك الآثار . وتشم ثيابه لعلها تعثر على بقية عطر غريب . . .

ثم سكت قليلاً كأنه يبحث عن تهم أخرى يقذفها فى وجوه فتيات الاسر . وفجأة أرسل ضحكة قصيرة وتابع قوله

— أتظن أنني لا أعرف الكثير عنهن ؟ لقد مررت بهذا الدور يا صديقي ولكنني سئمت . لا يوجد أفضل من فتاة كخيرية . لم أكد أخبرها أنك مشغول مع فتاة أخرى حتى هزت رأسها وقالت لى « طيب . ما اعطلوش بأه ! » . أنها فلسفة . . فلسفة تعجز عن فهمها خريجات « لاميرده ديو » و « الكلية الأمريكية » !

ولم يكد مراد يصل إلى هذا الحد من حديثه حتى شعرت بامتعاض خفى . ألا زالت خيرية تظهر ذلك النوع الأليم من عدم الاكتراث بى ؟

ولكنني استطعت أن أقاوم وأن أتظاهر بالهدوء وسألته

— على فكرة . أين هى الآن ؟

فأغمض نصف عينه اليسرى وأجابنى فى لهجة خبيثة

— موجودة . تحضر إلى المقهى كل ليلة . وقد أخبرتك أنها سألت عنك عدة مرات

— هل أخبرتها حقاً أننى مهتم بغيرها ؟

— ولم هذا الخوف ؟ كان يجب أن أقول لها ذلك لكى أثير اهتمامها بك ولكن هناك فرقاً كبيراً بينها و بين تلك التى كنت تحدثها فى « التليفون » منذ لحظة . مثلا . خيرية لن تسمم حياتك بمواقف الغيرة العمياء . ولن تلصق أنفها بثيابك لتشمها بأمل العثور على آثار عطر غريب كما تفعل الكلاب « البوليسية » . ولن تثور فى وجهك مطالبة برد رسائلها . . . اسمع نصيحتى يا صديقى . إن خير سياسة تتبع مع فتيات الاسر هى

الانسحاب قبل أن يقع الواحد منا في « مقالبهن » ! أكاد أتخيلك ذات صباح وأنت تقرأ « الأهرام » وإذا بخبر عقد قرانها منشور فى نهر « الاجتماعيات » فتقرؤه أنت مع غيرك من عشرات الآلاف ! ثم « تمتع » بصرك بعد بضعة أيام برؤية صورتها فى المجلات واقفة بثوب الزفاف الأبيض وإلى جانبها عريسها والورد يتناثر و « العوالم » يتقدمن موكب الزفاف وتحت الصورة خبر يذكر أن « محمد عبد الوهاب » انشد دور « اتمخطرى يا حلوه يا زينه . يا ورده من جوه جنينه » إجابة لرغبة العروس !

ثم أرسل ضحكة ساخرة عالية وأسرع بمغادرة الغرفة . . .

أشعر بأننى يجب أن أزيل تلك الفكرة الساخرة العابثة المستهترة التى تسود خيال خيرية عنى !

ماذا يمكن أن أفعل حتى أثير اهتمام خيرية بى ؟

٢٧ يناير

اتفقت صباح اليوم مع مراد على أن نحيى ليلة حمراء فى شقته بشارع دوبريه وكنت قد نسيت أننى سبق أن اتفقت مع نبيلة منذ أول أمس على أن نذهب الليلة لمشاهدة الفرقة الفرنسية التى تلعب على مسرح الأوبرا الملكية . ولكننى تذكرت الموعد عندما تحدثت إلى فى المساء . فاضطررت إذ ذاك أن أكذب وأن أخبرها أننى مضطر للذهاب إلى منزل خالتى بحدائق القبه لحضور اجتماع عائلى ومناقشة حسابات الوقف

الذى تستحق فيه والدتى حصة أنوب عنها فى مباشرة أعمالها القضائية . .

وقد صدقتنى المسكينة ووافقت على أن أذهب إلى ذلك الموعد « الهام » ! وأردت أن « أسبك » التلفيق الذى عمدت إليه فقلت لها .

— أخشى أن يكون قد ضايقك هذا الموعد يا « بيبى » — فأجابتنى فى لهجة حنون .

— كيف يخطر لك أن التفاتك إلى عملك يضايقنى ؟ عملك قبل كل شىء وكل شخص . حتى أنا . أتدرى أننى فرحت غاية الفرح لما سمعت الآن أن « ماما » وثقت بك دون باقى إخوتك ووكلتك عنها . هيا أذهب إلى موعدك يا حبيبى . حظ سعيد .

وغادرت المنزل إلى مقهى « فينكس » محافظاً على الموعد الذى أخبرنى مراد أن خيرية اعتادت المرور فيه .

وأقبلت خيرية فانتقلنا كالعادة إلى « باريزيانا » . ولم يكد يستقر بنا جلوسنا حتى التفتت إلى خيرية وقالت لى بسخريتها المألوفة .

— يخيل إلى أنك تجالسنا رغماً عنك يا حمدى بك ! — فسألتها

— لماذا ؟

— لأنك بعد أن اعتدت على مجالسة هوانم الأسر لا يليق بك مجالسة مثلى ! — ثم التفتت إلى مراد وابتسمت .

وتظاهرت أنا الآخر بعدم الاكتراث فلم أجبها . وأخذت أستعرض وجوه الجالسين والجالسات قريباً منا . ومد مراد ساقه وضغط على ساقى لكى

يستحثنى على الكلام فلم أفعل . . . . كنت إذ ذاك أفكر فى نبيلة !

لقد وثقت بى فخنت تلك الثقة خيانة جريئة !

ورفع مراد كأسه وشرب فشربت أنا الآخر . . وتكرر رفع الكأس وتكررت مجاراتى له .

وسادت المائدة روح ثمله مستهترة .

وانتقلنا جميعاً إلى شقة مراد . وأخذت خيرية تصرخ بصوت عال وشعرت أنا الآخر أننى مساق إلى مجاراتها فى مظاهر الصخب الثمل التى كانت تسود حركاتها . حتى أننى لم أكلف نفسى مؤونة الإنتقال إلى نافذة « الصالون » لإغلاقها خشية أن يزعج صراخنا الجيران رغم أن مراداً قد رجانى أن أغلقه بحركة من رأسه !

وحدث أن أرادت خيرية المرور من أمامى لتقوم هى باغلاقها فوجدتنى أمد ساقى لكى أعترض مرورها وعندئذ انكفأت على وجهها بقوة واصطدمت رأسها بالأرض وتفجر الدم من جبينها . . . وكنت أنتظر إذ ذاك أنها ستثور وتشتم أو يغمى عليها ولكنها أسرعت بالنهوض وربطت رأسها بمنديل ثم تابعت الصراخ بعد قليل كأن شيئاً لم يحدث . . !

وجاريتهم فى الشراب حتى ثملت تماماً . وخيل إلى مرة أخرى أن خيرية بلغ بها الإستهتار بى إلى حد أنها لم تغضب حتى بعد أن مددت ساقى وأوقعتها على الأرض وتسببت فى جرح رأسها !

وهيأت لى الخمر إذ ذاك أن أتقدم إليها وهى جالسة إلى جانب المائدة تكاد لا تقوى حتى على الجلوس وقد أخذت أصابعها تحرك الكأس التى أمامها حركات مضطربة . وظهر الدم على المنديل الذى ضمدت به رأسها . وتهدل ثوبها على الوشم الأخضر الذى « زانت » به ذراعها . فتقدمت وطوقتها بذراعى وحاولت رفعها وأنا أتمتم « أنك مدهشة الليلة يا ريرى » ولكنها استطاعت أن تفلت منى وركلتنى ركلة قوية فى ساقى وهى تصيح

— « روح للهانم بتاعتك ! » أنك تتودد إلى الآن لأنك ثمل . أتظننى ساذجة إلى هذا الحد . إننى « لا آكل » من هذا الكلام . . .

ولمحت إذ ذاك علامات الحقد والغيظ ظاهرة فى عينيها . وأردت أن أقترب منها فنفرت منى ثم مدت يدها ورفعت الكأس التى كانت أمامها وقذفت بها فى وجهى فتحطمت وتطايرت شظاياها . . . ولم أشعر إلا ودمى يسيل على عينى ويغمر وجهى ويخفى كل ما أمامى .

وتدخل مراد إذ ذاك وأراد أن ينتهر خيرية ولكنها كانت تبكى إذ ذاك وهى تصرخ .

— إنك تدافع عنه لأنه صديقك . ولكننى لا أقبل أن آخذ « فضلة » إمرأة أخرى ! أتريد أن تدفعنى إلى حبه ثم تتركنى لشماتة «الهوانم» اللاتى يعرفهن ... لم تجتمعون ضدى ؟ ألأنى راقصة تريدون أن يهضم هذا الرجل حقى ؟ أجل حقى . . لأننى فهمت منه أنه لا يحب غيرى فبدأت أحبه .

فانتهرها مراد قائلاً :

— أنت نملة . مالك وله ؟

— إننى أحبه . كأنك لا تعرف !

— من أين لى أن أعرف ذلك ؟

— كيف ؟ ألم أسألك عنه عشرين مرة !

واستطعت أن أجفف الدم الذى كان يسيل على وجهى وتقدمت متثاقلا إلى الباب فلحقت خيرية بى وأمسكت بثيابى وهى تصيح وقد غمرت الدموع وجهها و « نقع » الدم على المنديل الذى ضمدت به جبينه وذابت أصباغ « الماكياج » على شفتيها فبدا شكلها كئيباً كريهاً .

وكانت إصابتى قد نبهت حواسى وأفقت من نشوة الخمر فالتفت إليها وسألتها :

— ماذا تريدين ؟

— أريد أن توصلنى إلى بيتى

— لماذا ؟

— ولماذا نبقى فى بيوت الناس ولنا بيتنا !

— عجباً ! أنا لا أعرفك

— ولكننى أعرفك وأريد أن توصلنى إلى بيتى . سيروقك كثير أثاثه . — فتخلصت بعد جهد ودفعت بها فى عنف إلى الحائط ؛

أسرعت ففتحت الباب وخرجت وأنا أسمع صراخها «حمدى ! إنك ذاهب إليها الآن . أنا واثقة . ستأخذك منى بنت الـ ... »

. . وقبل أن تتم سبابها أسرع مراد فوضع يده على فمها وأسكتها خشية أن يخرج الجيران على صوت صراخها المتوالى

وعدت إلى منزلى وأنا لا أكاد أقوى على قيادة سيارتى ... ولم أكد أصل إلى غرفتى حتى أسرع خادمى الصغير فهمس فى أذنى قائلاً

— المادى سألت عنك عدة مرات

وفهمت تواً أنها لا بد أن تكون نبيلة ... ورفعت رأسى إلى الساعة الموضوعة على المائدة التى فى أقصى غرفة النوم فرأيت أنها قد تجاوزت الثالثة صباحاً . ولم أكد أنتهى من خلع ثيابى و إلقائها إلى الأرض حتى ارتفع صوت جرس التليفون فترددت فى أن أجيب. ولكنى تشجعت ورفعت السماعة وأجبت . وعندئذ سمعت نبيلة تقول لى فى لهجة حانقة غضبى

— حمد الله على السلامة يا حمدى بك . هل انتهت حسابات الوقف !

فأجبتها وأنا أحاول أن أبدو رزيناً هادئاً لا أثر لتلك الليلة المهمة التى قضيتها فى منزل مراد على أعصابى

— أجل انتهت مراجعة الحسابات . لم تتكلمين هكذا يا « بيبى » ؟

فانفجرت قائلة :

— « إخرص ! » أتجرؤ على أن تجرى إسمى على لسانك ؟

فسألتها بصوت مرتعد

— لماذا ؟

وعندئذ ضحكت ضحكة ظهر فيها الكمد المكتوم وقالت :

— ألا تعرف لماذا ؟ معذور . إن لسانك لا يقوى على الكلام

— ما ذا جرى يا نبيلة ؟

— قلت لك لا تنطق باسمى . إنس اسمى إلى الأبد . واحتفظ بأسماء الراقصات اللاتى كنت معهن حتى الآن

— فتمتمت فى ذهول

— راقصات !

— أجل . راقصات . أتظن أننى لا زلت بلهاء ؟

— أنت ... مخطئة

— كذَّاب . وجبان . لقد سألت عنك فى « فينكس » فأخبرونى أنك ذهبت إلى « باريزيانا » ولما سألت عنك هناك علمت أنك غادرتها عند منتصف الليل . وها أنتذا لم تعد إلى بيتك إلا قبيل الفجر . إنك رجل خلقت لتتمرغ كالخنازير فى هذا العبث القذر . ومن العار أن تنحط فتاة مثلى إلى مجرد سماع صوتك .

وذعرت من الجرأة التى كانت نبيلة تحدثنى بها . لم يخطر لى قط أن تصل بها الثورة إلى ذلك الحد من المهاجمة الصاخبة الجارفة المتجردة من كل رحمة . ولكننى استطعت أن أتنفس وأن أقول بعد صمت قصير

— لم يكن معنا الليلة إلا فتاتان لا شأن لى بهما . فهما صديقتا مراد . أقسم لك يا نبيلة أننى لا تربطنى بهما أية صلة

— لم هذا القسم ؟ أتظن أننى أغار من مثل هؤلاء النسوة! أن كل ماأطلبه أن تعيد إلى رسائلى . يجب أن تصلنى باكر . إن أقل قصاصة منها تساوى عمرك !

— لم كل هذه الثورة ؟ إننى واثق من أنك عند ما تذكرين هذه الكلمات غداً ستندمين

— أندم ! أنت تهذى .

— نبيلة !

— إننى لا أبقى على شىء . كل ما أطلبه هو إعادة رسائلى .

فبراير سنة ١٩٤٢

تحدثت نبيلة إلى بالتليفون اليوم وقالت لى فى لهجة لم تخل من عتاب وشعور بالندم امتزاجا امتزاجاً عجيباً

— لقد أعدت إلىّ رسائلى دون المظاريف التى أرسلتها إليك فيها ,

فسألتها وأنا أتبين الحكمة فى عودتها إلى الاتصال بى بعد أن انقطعت صلتنا تلك المدة

— أية مظاريف ؟

— المظاريف التى عليها اسمك وعنوانك بخطى

— وما نفعها لك ؟

— من يدرى . ربما ثملت ذات ليلة فى « باريزيانا » أو فى « شقة » صديقك فأظهرتها لمن اعتدت أن تلقاهن من النسوة !

— أيخطر لك أننى قادر على أن أرتكب هذه النذالة - فتهدج صوتها وقالت وهى تغالب النحيب

— لا ... لست نذلاً . ولكنك خائن !

وفهمت تواً أن العاصفة التى سممت حياتينا بضعة أيام قد طهرها بكاؤها وألمى

فتواعدنا على اللقاء الليلة ...



آمال !

— ١ —

رآها الأستاذ عادل وهو يتجه بسيارته الصغيرة فى طريق الهرم إلى « استوديو » مصر ليقدم « سيناريو » بموضوع قصة أراد أن يشترك بها فى المباراة التى دعت إليها شركة مصر للتمثيل والسينما . كانت هى الأخرى متجهة إلى مقر الشركة المصرية عند سفح الهرم لتشترك فى عرض نفسها — أو بتعبير أدق — فى عرض جسمها لاحتمال أن يختارها مخرجو الشركة للاشتراك فى أحد « أفلامها » القادمة .

لم يدر عادل المؤلف الشاب الذى كان يخطو أولى خطواته فى تأليف القصة المصرية لم أثارت تلك الفتاة اهتمامه وهى فى جلستها بغرفة « الحريم » بإحدى قطر الترام الصاعد إلى الهرم . . وساءل نفسه فى أول الأمر وهو يدقق النظر إليها من بعيد « ترى ما الذى دعا هذه الشابة الشقراء إلى ركوب ترام الهرم فى هذا الظهر القائظ » ؟ لم يخطر بخياله قط أنها ذاهبة لمشاهدة منطقة الآثار . . فقد كانت الكآبة تبدو على قسماتها . . كما أنه لم يشأ أن يفرض أنها إحدى ساكنات المنازل القائمة على جانبى شارع الهرم فساكنات تلك المنازل لم يعتدن ركوب الدرجة الثانية من قطر الترام

ومرت به إذ ذاك سيارات أفخم من سيارته . وأحدث طرازاً وأكثر سرعة كانت تحمل فتيات تأنقن أناقة خاصة فى اختيار ثيابهن . والعناية بزينتهن وكان يقود تلك السيارات شبان حديثو السن . امتدت سواعدهم فطوقت أولئك الفتيات أثناء القيادة . . ورأى تلك السيارات تنحرف من بعيد وتتجه مسرعة إلى حيث يربض « استديو » الشركة المصرية . . فتذكر الإعلان الذى كان قد قرأه فى صحف الصباح عن حاجة الشركة إلى وجوه جديدة للعمل فى أفلامها القادمة .

وكانت سيارته الصغيرة إذ ذاك قد سبقت الترام واقتربت من الطريق المؤدى إلى مقر الشركة فخطر له أن ينتظر حتى يقبل الترام الذى يحمل تلك الفتاة الشقراء التى أثارت إهتمامه فجأة دون أن يعرف لذلك سبباً . . أو لعله عرف السبب فارتاب فى إمكانه !

كانت شابة لا يمكن أن تتجاوز العشرين من عمرها . فاتنة إلى حد كبير وإن كان بصره قد وقع عليها وهى بعيدة عنه . تتخذ مكانها بترام الهرم الذى كان يؤرجحها فى جلستها على مقعدها الخشبى كأنه يقوم بعملية تعذيب رهيبة من آثار القرون الوسطى . . كان يمكنها لو شاءت أن تجد أكثر من شاب يصحبها فى سيارة فخمة إلى حيث تقصد . . فلم لم تفعل ؟

خطر له أن ينتظر عند أول الطريق المؤدى إلى « الاستوديو » لكى يحملها بسيارته معه إذا كانت تقصد حقيقة الذهاب إلى « الاستوديو » كما خطر له ولكنه خشى أن ترفض . وما دامت قد أبت أن تقبل دعوة

غيره وفضلت ذلك العذاب الطويل على المقعد الخشبى الجاف فلم تقبل دعوته هو . . دون أن تعرفه !

واستمر فى سيره إلى مقر الشركة . وقدم الموضوع الذى أعده ثم عاد إلى حيث ترك سيارته وجلس بداخلها ينتظر . .

وكان فحص المتقدمين والمتقدمات إلى الشركة قد بدأ منذ مدة وأقبلت الفتاة الشقراء التى لمحها الأستاذ عادل فى ترام الهرم تتهادى فى وقفتها . ثم انضمت إلى غيرها من المتقدمات . . ومر مدير الشركة مع أعضاء اللجنة التى عهد إليها أمر إختيار الوجوه الجديدة . فى بطء بين صفوف الفتيات اللاتى أقبلن وفى صدورهن الشابة آمال باسمة جياشة عن مستقبل سعيد ونجاح هائل على لوحة السينما . وأصلحت الفتاة الشقراء من ثوبها الأزرق البسيط ورفعت يدها إلى رأسها محاولة تنسيق شعرها الذى كان الهواء قد عبث به فى رحلتها الطويلة إلى مقر الشركة . ولكن المدير الشاب رمقها بنظرة فاحصة ثم تخطاها إلى غيرها دون أن يقف . وتبعه أعضاء اللجنة . . ففهمت أنها لا تصلح لأن تكون وجهاً من (الوجوه الجديدة) ! وانسحبت بهدوء متجهة إلى الطريق الزراعى الضيق المؤدى إلى . . إلى محطة الترام !

ومرت فى سيرها بالأستاذ عادل وهو داخل سيارته الصغيرة . . لم تكن تبكى لأن آمالها التى دفعتها إلى المجىء قد إنهارت فى لحظة ولكن قسمات وجهها زادت كآبة وعبوساً .

وابتسم عادل إذ ذاك عند ما رآها تسير متهالكة وقد أخـذ حذاؤها يغوص فى طين الطريق الذى كان يفصل بناء « الاستوديو » عن مصرف صغير .

ولشد ما دهش عند ما رأها تبتسم هى الأخرى !

فأدار محرك سيارته ثم اقترب منها ووقف بجانبها قائلا وهو يفتح باب السيارة .

— هل تقصدين القاهرة يا آنسة ؟ — فأطرقت إلى الأرض وتمتمت .

— أجل .

— إذن تفضلى . أنا ذاهب إلى القاهرة أيضاً .

فرمقت بناء « الاستوديو » بنظرة متحسرة ثم سألته

— هل أنت خارج من هنا ؟

— أجل

— لعلك تكون قد وفقت إلى نتيجة أسعد من التى وصلت أنا إليها

— ماذا تعنين ؟

— أعنى أننى أرجو أن يكون قد قبلوك هنا . لأننى لم أقبل

— لا أدرى بعد

وفى حركة رشيقة تقدمت إلى السيارة وركبت إلى جانب عادل الذى انطلق بها عائداً إلى القاهرة . . وكأنها انتهت تواً إلى أنها أقدمت على شىء غريب فأخذت تجيل بصرها حولها ثم أدنت وجهها منه وسألته

— لم ركبت معك ؟

— لأننى دعوتك

— فقط ؟

— ماذا تقصدين ؟ — فضحكت ضحكة مكتومة ثم قالت

— أية فتاة تدعوها يجب أن تركب معك ! هل أنت منهم ؟

— من هم ؟

— أولئك الذين يقفون بسياراتهم فى الشوارع يعرضون على كل مارة النزهة فى سكة السويس أو طريق الهرم . لو كنت أعرف أنك « منهم » لما رضيت بالركوب معك

— ومن قال لك إننى « منهم » ؟ — ولكنها لم تنتظر إلى أن ينتهى من سؤاله بل مدت يدها إلى باب السيارة وفتحته وهى تقول

— نزّلنى ! — وذعر عادل لأنها همت بألقاء نفسها والسيارة فى أقصى سرعتها . وأمسك بها وهو يقول

— كيف تنزلين والسيارة مسرعة ؟

— لا أريد أن أركب معك

— ولكنك قبلتِ . فلم غيرت رأيك ؟

— فكرت فوجدت من الأفضل أن أعود وحدى

— إذاً انتظرى إلى أن نصل إلى الجيزة ثم انزلى . إننى أريد أن أريحك من عناء الترام

— لا . كلكم كذّابون . أريد أن أترك هذه السيارة حالاً . ولا أود أن

يتولى « رجل » أيصالى . . . لقد خيل إلى أنك أحد الذين تقدموا مثلى إلى الشركة التماساً لعمل يرتزقون منه

ولاحظ عادل إذ ذاك أنها كانت ترتعد وهى ملتصقة بجدار السيارة الآخر محاولة الإبتعاد عنه جهد طاقتها . وتبين أنها تجتاز أزمة عصبية حادة فقال لها فى لهجة حنون

— إن ما خيل إليك صحيح . الفرق بينى و بينك أنك تقدمت بنفسك للعمل كممثلة وأنا تقدمت بقصة للعمل كمؤلف .

فعادت تطيل النظر إليــه كأنها تتحقق من صدق ما يقول . وأخذت قسمات وجهها تنبسط .

وخف تهدج صدرها وزال عنها شىء من الذعر الذى كان مستولياً عليها ثم قالت فى همس :

— هل حقاً أنك تكتب قصصاً ؟

— أجل . قدمت اليوم موضوع قصة مصرية جديدة لعلها تصلح كسينار يو سينمى

فهزت رأسها بضع هزات متواليــة ثم قالت له فى لهجة تفيض سذاجة وطهراً :

— إذا كانوا فى الشركة قد رفضوا قبولى لأنهم تبينوا أننى لا نفع منى لهم . فإننى قد أنفعك أنت . إن حياتى كلها قصة . قصة غريبة . منذ زمن طويل وأنا أتوق إلى أن أحكيها لرجل مثلك — وسكتت قليلا ثم ارتجف

رجفة ظاهرة كأنها استعرضت ذكرى أليمة وعادت فالتفتت إليه واستمرت

— يبدو عليك أنك طيب القلب . رغم أنك رجل . فهمت ذلك من نظرتك وأنت تدعونى للركوب .

وكانت السيارة إذ ذاك قد وصلت إلى إحدى المطاعم الريفية المتناثرة فى طريق الهرم والتى تحيط كلا منها حديقة صغيرة تبعثرت فيها بضع موائد خشبية مهشمة فأشارت إلى باب المطعم وهى تقول :

— إننى ظمآى . ألا أستطيع أن أجد هنا شيئاً يروى ظمأى ؟

وأوقف عادل سيارته ونزل منها . ثم دار بسرعة حولها وأعانها على الهبوط وتقدم الاثنان إلى باب المطعم كأنهما زوجان أو صديقان قديمان انقضت على صداقتهما أعوام طويلة

وأحس عادل فعلا بشعور غريب وهو يهبط درجات السلم المؤدى إلى الحديقة . خيل إليه أنه يتقدم مع تلك الفتاة الشقراء التى ساقها إليه القدر إلى كهف من تلك الكهوف المظلمة الرهيبة التى طالما قرأ عنها فى قصص « ريدر هاجارد » والتى كانت غالباً بطلتها امرأة .

والتفت إذ ذاك إليها . . لم تكن ترتعد كما لاحظ عليها عند ما كانت جالسة إلى جانبه فى السيارة بل كانت تخطو مسرعة إلى المائدة الأخيرة كأنها تريد أن تهرب من شىء يلاحقها . ثم ألقت بكل جسمها على المقعد وهى تقول لاهثة

— ألا تشعر بظمأ كما أشعر أنا ؟

فوجد عادل نفسه مسوقاً إلى إجابتها

— أجل . إن الجو اليوم قائظ الحر

وصفق يطلب زجاجة كبيرة من « البيرة »

وشرب الاثنان . شرباً كثيراً . . . وأطالت الفتاة تدقيق النظر إلى عينيه . . عينيه الواسعتين . . . اللتين كانتا تبدوان — فى ظل تكعيبة الكرم الكثيفة التى كانت تحنو عليهما — كأنهما عينا طائر وديع منهوك القوى يحتمى بذلك الظل من شمس الطريق

وترنحت الفتاة الشقراء إذ ذاك فى جلستها . واقتربت بوجهها من وجهه ثم قالت فى لهجة ثملة .

— لعلك تسائل نفسك الآن « ما هى حقيقه هذه الفتاة التى كانت تتظاهر منذ برهة بأنها لم تركب من قبل مع رجل غريب فى سيارة ثم لم تلبث أن شربت فى حانة خلوية حتى ثملت ! » إننى أعرف أنك تريد أن تسايرنى حتى ترى آخرة هذه المغامرة — فارتبك عادل قليلاً ثم قال :

— من قال لك إننى ... — فقاطعته قائلة :

— أسكت . لا تنكر . كلكم كذابون كما قلت لك . حتى « هو » كذب على ... — فسألها مندهشاً

— من « هو » هذا الذى كذب عليك ؟

فاعتدلت فى جلستها وقالت :

— رجل . رجل مثلك ومثل غيرك . بل قد يكون أفضل منكم جميعاً .

سأحكى لك قصتى معه ثم أتركك وانصرف دون أن أنتظر منك كلمة عطف أو تشجيع — ومدت يدها إذ ذاك فتناولت سيجارة أشعلتها ثم أخذت تنفث دخانها بشراهة ثائرة وقالت وهى تغالب تأثرها

— إننى لست من القاهرة . فقد ولدت فى الاسكندرية وقضيت حياتى كلها هناك ولم أجىء إلى القاهرة إلا منذ عامين . لن أقول لك إننى ابنة باشا أو وزير و إنما أنا ابنة تاجر يعرفه أهل محرم بك حق المعرفة . لا تكاد تذكر اسم الشيخ عوض الذكورى أمام أحدهم حتى يقول لك «الله يرحمه . كان رجلا طيباً» . هذا هو أبى . اشتغل بتجارة القطن . وكفل لى ولأخوتى حياة رغدة . لم يكن ينقصنا شىء . كان بيتنا من البيوت المعروفة فى الحى . حديقة كبيرة و«جاراج» وبستانى وطاه و «سفرجى» وكانت سيارتنا تحملنى صباح كل يوم إلى المدرسة وتعود بى عصراً . وكانت مصروفاتى المدرسية تكلف أبى ستين جنيهاً سنوياً . لم يخطر ببالى قط إننى سأضطر يوماً ما إلى البحث عن عمل لأعيش . مرت بى الحياة هادئة . رغدة . حتى عرفت سعيداً . .

وسكتت قليلا ثم مدت يداها وتناولت قطعة من اللحم البارد الذى قدم مع زجاجة « البيرة » فوضعتها فى فمها وأخذت تمضغها فى هدوء وهى لا تزال تنظر إلى عينى عادل . واستمرت قائلة .

— كنت إذ ذاك طفلة لم أتجاوز السابعة عشر . وكان هو يكبرنى بسنتين أو ثلاث.. رأيته لأول مرة عند ما أقبل من القاهرة ليقضى أجازة

الصيف فى بيت أبيه على بك بغدادى . جارنا فى محرم بك . وصديق أبى . . . إنك لم تر سعيداً ولو كنت رأيته لأحببته كما أحببته أنا . كان إذ ذاك لا يزال طالباً بكلية الهندسة . طويل القامة فحمى الشعر . واسع العينين ... إننى لا أنسى ذلك اليوم قط . كنت واقفة خلف سور الحديقة عند ما وقفت عربة « عمى » على بك بغدادى — العربة « الحنطور » ذات الجواد الأبيض المفرد — ونزل سعيد منها ... ثق أن هناك شيئاً اسمه الحب من النظرة الأولى. اقسم لك أنى أحببته .... أحببته قبل أن أعرف اسمه . وقبل أن أعرف أنه ابن بغدادى بك جارنا . وقبل أن يقع بصره على . وظللت واقفة إلى أن نزلت « تيزه » هدى هانم . زوجة على بك وعانقته ثم قبلته قبلات طويلة متكررة . يومئذ تغيظت وخيل إلى أن أقفز سور الحديقة وأهجم عليها لأبعدها عنه . أحسست بحاجة ملحة إلى أن يكون ذلك الشاب لى . لى أنا وحدى . وهبطت فى اليوم التالى مبكرة إلى الحديقة وظللت واقفة خلف السور إلى أن نزل سعيد . . . ورآنى . وخطر لى أنه سيشيح بوجهه عنى . وقلت لنفسى وأنا أتوقع ذلك « لابد أن هناك . فى القاهرة . فتاة تحبه ويحبها » ولكن سعيداً التفت إلى وابتسم . فلما رآنى أشخص إليه تشجع واقترب من السور ثم وقف خارجه . وقد حاولت أن أعدو فلم أستطع ... لم أستطع لأننى أحسست بقدمىّ تغوصان فى تربة الحديقة . وفجأة مد سعيد يده وأشار إلى بنفسجة قريبة وقال لى « أرجوك أن تقطفى هذه الزهرة يا آنسة » فانحنيت فى طاعة آلية وقطفتها ثم أعطيتها

له . . . منذ ذلك اليوم بدأت علاقتى به . وتطورت هذه العلاقة فأصبحت أتسلل بعد أن ينام أهل بيتى وأخرج معه تحت جنح الظلام . قضينا ليالى بأسرها حتى الفجر فى « سيدى بشر » . أنا وهو . ملتصقين على الشاطىء . وقد اشتدت حلكة الظلام حولنا . وبدت أنوار قوارب الصيد من بعيد داخل البحر . تتأرجح على قمم الأمواج كأنها أشباح زنوج تحمل المشاعل وترقص فى حفلة عرس . ساعات طويلة كانت تنقضى ويدى فى يده . وعيناى ترنوان إلى عينيه دون أن ننطق كلمة واحدة . أشد أنواء البحر فى الليالى العاصفة لم تكن تخيفنى ما دام « هو » إلى جانبى . وذات ليلة . أخذنى معه إلى « الدخيلة » وقدمنى على أننى خطيبته إلى بعض أعراب من أقاربه ضربوا خيامهم هناك . وكان مولد « العجمى » مقاماً إذ ذاك على مقربة من تلك الخيام . فتناولنا العشاء معهم ومررت وسط الجموع المحتشدة فى « المولد » أثناء الليل دون أن أرهب شيئاً . وانقضى الوقت . فعدت إلى البيت قبيل الفجر . وفى الصباح أيقظنى أبى وصرخ فى وجهى « ما هذا يا فاجرة ! » والتفت فوجدت وشاحى الحريرى الأزرق الذى كان ملتفاً حول عنقى فى الليلة السابقة وحذائى وحزامى ملوثة بالطين . واستمر أبى فى ثورته وهو يركلنى بقدمه ويجذبنى بقوة من فراشى ليلقى بى إلى الأرض « أليست هذه ثيابك ! لقد وجدها البستانى ملقاة بجانب سور الحديقة . وعرف جميع الجيران أن إبنة عوض الدكرورى عادت إلى بيتها فى الفجر وخشيت الدخول من الباب فقفزت فوق

سور الحديقة ... عوض الدكرورى الذى حلف أهل محرم بك باسمه منذ أربعين سنة تحدث هذه الفضيحة فى بيته آخر العمر ! » .

وكانت الفتاة الشقراء قد تهدج صوتها عند ما وصلت فى سرد قصتها إلى هذا الحد فمدت يديها ورفعت كوب « البيرة » إلى فمها وأفرغت ما بها فى جوفها وأعادتها فى حركة آلية إلى مكانها على المائدة وهى مستمرة فى سرد تلك القصة .

— يومئذ أرسلت خادمتى الصغيرة إلى سعيد لتصارحه بما حدث فأرسل إلى معها رسالة يخبرنى فيها أنه سيسافر إلى القاهرة بالسيارة فى منتصف الليل ليعود إلى الكلية بعد أن انتهت الأجازة . وطلب منى أن أعد ثيابى وأهرب معه .. لا أزال أذكر عن ظهر قلب نص تلك الرسالة الصغيرة التى غيرت مجرى حياتى كلها

« لا تخافى . إنى أعرف التضحية التى أقدمت عليها من أجلى وأقدرها .

لست أول زوجة ضحت من أجل زوجها الذى يحبها وتحبه . . . سنتزوج رغم الجميع يا ميمى . لنبدو أمام الناس أجمعين متعانقين دون أن يجرؤ أحد على ضربنا . أو انتقادنا . إلى اللقاء فى منتصف الليل عند طرف سور الحديقة القبلى »

وذهبت لألقاه فى الموعد كما طلب .. غادرت بيت أبى أحمل حقيبة صغيرة واحدة وضعت فيها ثيابى الضرورية . وقد ركبت إلى جانب سعيد الذى انطلق مسرعاً فى طريق القاهرة . لم يخبر أحداً من أسرته بشىء عن

مشروع زواجنا لأنه كان موقناً بأن أباه على بك بغدادى لن يوافقه على زواجه بعد أن خطب له بنت أخيه . وهى فتاة ثرية . مات أبوها — أخ بغدادى بك — وترك لها أربعة آلاف جنيه فى مجلس حسبى الإسكندرية وثلاثة منازل فى كرموز وربع وابورطحين فى كفر الدوار . وظل سعيد يقود سيارته طول الليل . كانت رحلة مدهشة . لم أرهب سرعة السيارة فى ظلام الليل . ولا وحشة الطريق الخالى . ولم أهتم بأهلى الذين تركتهم خلفى فى محرم بك . لم أفكر إلا فيه . هو . فى سعيد الذى كان إلى جانبى . ولم أهتم إلا به فكنت أغلق زجاج نافذة السيارة كلما شعرت بأن هواء الليل قد اشتدت برودته وخشيت على صدره منه . فإذا لاحظت أن العرق بدأ يتصبب على جبينه ضممت سترته فوق صدره وأحطت رقبته بوشاحى الحريرى الأزرق وفتحت النافذة مرة أخرى . وإذا شعرت برغبته فى التدخين أخرجت سيجارة وأشعلتها بنفسى ثم وضعتها فى فمه . وانتظرت حتى إذا انتهى منها تناولتها وألقيت بها إلى خارج السيارة . وقد غنيت له أكثر من مرة عند ما لاحظت سأمه من القيادة . وكنت أتوقف عن الغناء إذا مررنا بمنظر طبيعى من المناظر التى مررنا بها قبيل الفجر وأصف له جماله بالتفصيل حتى لا أدعه يلتفت إلى أن ظهرت القاهرة من بعيد . القاهرة التى لم أكن قد رأيتها من قبل . وأخذت أتخيل البيت الذى سنعيش فيه معاً . وبدأت أرتب — فى خيالى — غرفة . وأنسق أثاثه . استبعدت تواً فكرة الاستعانة بخادم أو خادمة أو طاهية . وشعرت بفرح هائل وأنا أتخيل

نفسى واقفة أمام نار الموقد وقد ارتديت « مريلة » بيضاء لأعد له طعام الإفطار قبل أن يذهب إلى الكلية . ثم وأنا أتنقل فى « المطبخ » أطهى له طعام الغداء قبل عودته منهـــا . الطعام الذى يحبه و يسره أن يأكله — معى — من صنع يدى .

وسكتت الفتاة قليلا . ثم تنهدت طويلا كأنها تزيح عبء ذكرى هائلة . و بعد ذلك اعتدلت فى جلستها وتابعت حديثها .

— كان الفجر قد بزغ عنــد ما وصلنا شبرا . وأخذ الطريق الزراعى يزدحم بالعربات والسيارات الرائحة والغادية . وكان سعيد يقود سيارته بأقصى سرعتها لكى ننتهى من تلك الرحلة الطويلة . ولمحت سيارة من سيارات النقل الكبيرة تحمل أثاثاً بدا عليه أنه « جهـاز » عروس أطاعت إرادة أهلها فزوجوها وفق مشيئتهم ولذلك جهزوها بما شاءت . وكانت السيارة قادمة من القاهرة منطلقة بسرعة مخيفة وظننت أن سعيداً قد رآها وأنه سيتلافاها . ولكننى فجأة رأيتها متدفعة نحونا فصرخت صرخة هائلة وحجبت عينى بذراعى ثم لم أعد أشعر بشىء . . . بعد عشرة أيام وجدتنى مستلقية على أحد أسرة القصر العينى . مضمدة الجروح . وعرفت كل شىء .

وسادت فترة صمت . لم يسمع أثناءها عادل إلا صوت أنين مكتوم يزفره صدرها المتهدج

ثم قصت على عادل كيف أنها تبينت بعد أن تمكن الأطباء من إنقا

حياتها أن سيارة سعيد اصطدمت بسيارة النقل الضخمة صدمة عنيفة قلبتها إلى الترعة التى كانت إلى جانب الطريق وتهشمت على أثر ذلك عظامهما وأن أسرة سعيد أقبلت من الإسكندرية عند ما بلغها الخبر فنقلت ابنها من القسم المجانى بالمستشفى الكبير فى إحدى سيارات الإسعاف إلى المستشفى الإسرائيلى . فلما استعاد قليلا من قواه نقلته إلى الإسكندرية . وأن على بك بغدادى دفع نفقات علاجها هى وترك لها أيضاً مبلغاً بسيطاً من المال ليعينها على العيش عند تماثلها للشفاء بعد أن علم بأن والدها يرفض بتاتاً أن يحضر لرؤيتها أو (لاستلامها) ! وأنها غادرت (القصر العينى) بعد بضعة أيام لتهيم على وجهها فى شوارع القاهرة كهرة ضالة لا سيد لهـا . ولا منزل يأويها !

وانقضت بضعة أسابيع وهى لا تعرف ماذا تفعل . . نزلت أولا فى إحدى فنادق شارع الفجالة حتى نفدت النقود التى تركها لها والد سعيد . وأحست بوجوب الحاجة إلى العمل فكانت تعمل أولا مع سيدة سورية من حائكات ثياب السيدات . ثم اختارها أحد أقارب تلك السيدة السورية من أصحاب الصيدليات بشارع كلوت بك لتجلس إلى جانب خزينة النقود . بعد أن شاهدها وأعجب بجمالها . وكان هذا الصيدلى قد ابتكر نوعا من أنواع (الكريم) لزينة السيدات فرأى أن يضع صورتها على غطاء العلبة المحتوية على ذلك (الكريم) . ولاحظت أن مجلسها على مقعد الخزينة أمامه فى تلك الصيدلية يعرضها لنظرات زبائنها النهمة فلم تطق البقاء طويلا

وعرض عليها وكيل نوع من أنواع السيارات الإمريكية المعروفة أن يلتقط لها صورة إلى جانب الطراز الجديد الذى أخرجته معاملها . وعرض تلك الصورة فى واجهة معرضه بشارع سليمان باشا ، كما نشرها فى المجلات العربية والإفرنجية .

ولما عادت النقود فنفدت منها . وجاعت . . لم تقبل قط أن تسلك أيسر السبل التى اعتاد غيرها من الشابات الجميلات أن يسلكنها لكى تسد جوعها . . !

— وقد رأيتَ أننى حاولت أن أرتزق من العمل كممثلة . ولكننى لم أوفق . إننى أعرف أن المرحوم أبى قد دعا علىّ قبل أن يموت . وقد أخبرتك أن أهل محرم بك قد اعتادوا كلما ذُكر اسمه أمامهم أن يقولوا « الله يرحمه كان رجلا صالحاً » ودعوة الصالح وهو يستقبل الله مستجابه . لقد استجاب الله لعنته على !

واستمع المؤلف الشاب عادل شوكت إلى حديث الشقراء المجهولة حتى انتهت . وأحس بعطف هائل يطغى على روحه ويجذبه نحوها . وعندئذ قال لها :

— ما الذى يرغمك على أن تعملى كممثلة ؟

— وماذا أفعل إذاً ؟

— تعالى عندى

ففتحت فمها . وشهقت شهقة حادة ثم قطبت جبينها وقالت فى رجفة مرتعدة :

— عندك !

— أجل عندى . فى بيتى . — فعادت تسأله

— من أنت ؟

— اسمى عادل شوكت . من بورسعيد . موظف فى مصلحة المساحة . وأعمل بعد الظهر فى قسم الترجمة بإحدى الصحف الصباحية . وأسكن وحدى فى شقة بميدان الجيزة

— وماذا تريد منى ؟

— قلت لك إننى أعيش وحدى . لست متزوجاً . ماذا يمنعك من أن تعيشى معى ؟

— كيف تعرض على ذلك دون أن تعرفنى ؟

— عرفتك اليوم

— ألا يمكن أن أكون قد ألفت قصة مؤثرة لاستدرار عطفك !

— لا يمكن

— من أين لك هذه الثقة ؟

— لا أدرى

— إذاً . ما اسمى ؟

— لا يهمنى أن أعرفه

فضحكت ضحكة جافة وأفرغت بقية الكأس التى كانت أمامها فى جوفها وقالت له :

— قل لى يا « ميمى » كلما أردت أن تنادينى

— ٢ —

وعاشت « ميمى » الشقراء فى منزل المؤلف الشاب أسبوعا كاملا . . كانت تخرج معه كل يوم بعد عودته من عمله وتشرف على بيته الصغير . تطهى طعامه و « تكوى » ثيابه وتدبر حياته الخاصة .

وذات ليـلة كانت تسير إلى جانبه صاعدين أ كمة عالية فى طريق الفيوم بعد أن تركا السيارة الصغيرة . وكان القمر يغمر المكان بأشعته . وصفير رياح الصحراء يرتل أنشودة ساذجة مريحة . كأغانى البـدو . ورطوبة الليل تدفع الشابين إلى الالتصاق

ومد عادل يده فأمسك بيدها . وهبت إذ ذاك عاصفة رملية نثرت ذراتها على وجهيهما . وضغط عادل على يدها ومد ذراعه الآخر فطوقها به وجفلت قليلا ثم استسلمت . وألقت برأسها على صدره المتهدج ولما هدأت العاصفة قليلا سمعها تقول فى رجفة :

— عادل ! — فسألها فى حنان

— ماذا بك يا ميمى ؟

— إننى أحبك . لستَ كغيرك من الرجال . كان يخيل إلى أننى لن أثق بعد برجل قط حتى أموت . ولكننى بعد أن عرفتك وخبرتك تبينت أنك طيب . إن طيبتك تثير دهشتى لأنها شىء لم أ كن أتوقعه من رجل وأدنى فمـه إذ ذاك من شعرها وطبع عليه قبلة فرفعت فمها إليـه والتقت الشفاه فى قبلة أخرى أطول . . وأشد عصفاً وثورة . . .

— ٣ —

في صباح اليوم التالى استيقظ عادل على غير عادته ، وبينما هو جالس يقرأ صحيفة الصباح ويختلس بين لحظة وأخرى نظرة سريعة إلى جسم فتاته الشقراء وهى متمددة على فراشها مستغرقة فى نومها دق الباب فأسرع بفتحه . وعندئذ رأى أمامه شاباً طويل القامة أسمر اللون ينظر إليه نظرة فاحصة طويلة ويسأله

— أليست آمال هانم هنا ؟

فدهش عادل فى أول الأمر ولكنه سرعان ما تذكر !

إنه لابد أن يكون سعيد الذى أحبته أولا عاد أخيراً للبحث عنها وتمالك عادل رباطة جأشه ثم سأله :

— من الذى يسأل عنها ؟ — فأجابه فى ثبات

— قل لها « سعيد »

— سعيد من ؟

— يكفى أن تقول لها « سعيد » . فستعرف تواً

وفجأة ظهرت آمال ملتفة فى « ثوب الغرفة » وقد تجهم وجهها وتقدمت بخطى ثابتة إلى حيث وقف سعيد ثم قالت :

— ما الذى جاء بك ؟ — فأجابها

— جئت أبحث عنكِ

— ماذا تريد منى ؟

— لقد تخرجت ونلت « الدبلوم » يا « ميمى »

— مبروك . ماذا تود أن تقوله غير هذا ؟

— تتكلمين بهذه اللهجة لأنك تحسين بالخطأ الذى ارتكبته

— أى خطأ !

— إنك تعرفين ماذا فعلت بعد ذلك الحادث . لقد سمحت لنفسك بأن تطبع صورك على علب الأدوية وبأن تنشر فى الصحف والمجلات . إن أهلى محرم بك لا يرحمون . وقد سمعتهم بأذنى يقولون إنك اشتغلت راقصة بعد أن رأوا صورك . فلم أستطع أن أدافع عنك . لأننى لم أكن أتصور يمكن أن تتردى إلى هذا الحد . وأخيراً . . . ها أنذا أراك تعيشين مع رجل غريب فى بيت واحد — فقاطعه عادل قائلاً

— لا . إننى لا أسمح لك أن تصف تصرفها بالشكل الذى تريد أن تصوره . إنها تعيش فى بيتى ولكننى أقسم على أنها أطهر من ..— وقبل أن يتم جملته اتجهت آمال إلى سعيد وصاحت

— أطهر منك أنت على الأقل . لقد تركتنى ملقاة فى القصر العينى وأطعت أهلك فى الغدر بى فلم تسأل عنى سنتين كاملتين . لم تحاول أن تعرف كيف أعيش . ولم تكلف نفسك مشقة الاستفسار عما إذا كنت أجد القوت الضرورى أم أننى أتصور جوعاً ثم بعد ذلك تجىء لتحاسبنى عما فعلت فى تينك السنتين ! لقد أحببتك عند ما خيل إلى أنك على أهبة التضحية بأهلك كما ضحيتهم أنا ولكننى بعد أن تبينت أنك لا تستطيع

الا أن تكون عالة على أبيك كرهتك . أتسمعنى ؟ إننى أكرهك وأحتقرك لأننى أثبت أننى أشجع منك إذ تمكنت من أن أكافح أهوال الحياة . ونفاق الرجال وحدى . بينما عجزت أنت عن أن تعول فتاة ساذجة فى السابعة عشر من عمرها . إننى أكرهك ولا أود أن أراك بعد اليوم

وبدا الذعر على وجه سعيد . ثم دنا منها وهو يقول محاولاً التلطيف عنها

— إنك لا تعرفين كم تعذبت خلال تينك السنتين . . .

فأرسلت آمال بضع ضحكات عالية قاطعته ثم قالت فى صوت راعد

— أجعتَ كما جعتُ أنا ! أأرقتَ ماء وجهك فى التردد على أبواب الحوانيت للبحث عن عمل لا يكاد يفى ثمن لقمة العيش كما أرقته أنا ! أحرمتَ نفسك من كل متعة . وكل تسلية . وتواريتَ عن الأنظار خجلاً من ثوب متهدل بال لا تملك غيره لكى تعيش بشرف كما فعلت أنا ! ماذا أصابك ؟ لقد أتممت تعليمك . ونلت « دبلومك » وأصبحت مهندساً . أما أنا . . . من أنا ؟ هه ! هه ! ما أنا إلا فتاة مسكينة أثارت عطف شاب غريب فآواها فى بيته دون أن يعرف اسمها

— لقد جئت لكى أؤكد لك أننى لا زلت راغباً فى الزواج منك

— الزواج منك أنت ! هل جننت ؟ لا يمكن أن أتزوجك . إننى أفضل التسول فى الطرق على الزواج منك . لأننى لا أطمئن إلى رجل باعنى ليشترى أهله . باعنى وأنا مضرجة بالدم . مشوهة الخلقة . مهشمة العظام . ملقاة ككلبة فى سرير من الأسرة المجانية بمستشفى القصر العينى . أخرج . أخرج يا نذل

ثم تقدمت ودفعته إلى الخارج وأغلقت الباب .

ولما انقضت بضع دقائق وسمعت صوت أقدامه تهبط درجات السلم سقطت على أقرب مقعد واجهشت بالبكاء

— ٤ —

وسادت فترة صمت رهيب

واقترب عادل منها وحنا عليها وهو يقول فى صوت وديع

— لا تجزعى . إننى معك .

فلما رفعت رأسها إليه رأى وجهها يشرق بابتسامة سعيدة والدموع لا تزال تلمع فى عينيها فضمها إلى صدره وهو يقول

— إننى أحبك لم أشأ أن أصارحك من قبل — فسألته وشفتاها ترتعدان

— رغم هذا الماضى الماثل أمام عينك ؟

— لن أذكرك به قط . ولن أذكره أمام نفسى

— ضمنى إلى صدرك . إننى خائفة

— مم تخافين ؟

— من طيبتك هذه . لقد كان هو الآخر طيباً فى بادىء الأمر — فقاطعها وهو يضمها كطفلة

— لقد اتفقنا على ألا ننبش ذلك الماضى . لننظر إلى المستقبل الذى سيجمعنا معاً

وفى مساء ذلك اليوم كان مأذون بندر الجيزة يحمل دفتر وثائقه وسبحته وعلبة « النشوق » ليسجل عقداً جديداً


الموعوده

الموعـــودة

رسالة سيدة من الريف الى المؤلف

— ١ —

« أنت لى يا حبيبتى . . . لى أنا وحدى . »

نطق فايق عباس بهذه الكلمات القليلة وهو مستند إلى حائط «الكابينه» الأخيرة من صف « الكابينات » الممتدة إلى أقصى حدود « بلاج » ستانلى باى من الجهة البحرية

كانت نفس الكلمات التى اعتدت أن أسمعها منه . والتى طالما اهتز قلبى فرحاً وهو يرتلها فى نغم موسيقى وقد أخذت شفتاه الغليظتان تهتزان أثناء إلقائها هزات متئدة رزينة كأنهما تبكيان لسماع أنشودة رائعة مؤثرة .

ومع ذلك فإن هذه الكلمات نفسها قد أثارت حقدى الهائل وأحالت الدنيا إلى جحيم أمام عينى . فلم يكن فايق يوجه كلامه إلى إذ ذاك و إنما كان يوجهه إلى عنايات سرى . ابنة عبد السلام بك سرى أحد كبار موظفى المجلس البلدى الذى كان يقطن إحدى « الفلات » الفخمة المطلة على « الكورنيش » عند « جليمونو بلو »

لم يكن فايق يطوقنى إذ ذاك بذراعه الطويل القوى . ولم يكن يضغط بذقنه على رأسى كأنه يحاول دفنى فى صدره العريض المتهدج كما اعتاد .

ولم يكن يغمر وجهى بأنفاسه التى امتزجت فيها رائحة الدخان بحرار الرجولة الغنية التى أمتاز بها والتى لفتت إليه أنظار المصطافات على بلاج «ستانلى» و « حليم » — لم أكن أنا إلى جانبه يومئذ . . . وإنما كانت إلى جانبه فتاة أخرى كما قلت . عنايات . التى لم أكن أعرف قط أن له بها علاقة . لأننى رأيته مرة يحييها باحناء رأسه من بعيد أثناء التريض فى فناء كازينو « سان ستفانو » العريض فلما سألته عنها أجابنى أنها زميلة ابنة عمه فى مدرسة « الدليفراند » وأنها قدمتها إليه مرة فى إحدى حفلات سينما الكازينو النهارية !

لم يكن فايق إذاً يرتل الأنشـــودة القديمة من أناشيد غرامنا القديم على سمعى أنا كما اعتاد أن يرتلها ثلاثة أعوام طويلة فى نفس المكان من شاطىء الأسكندرية ولم يكن يتصور أنى سأسمعه يرتلها — فى نذالة هائلة — على مسمع فتاة أخرى غيرى . أنا التى بادلته الحب العظيم ووفيت له طول تلك المدة فكنت لا أحيا إلا بذكرى جلساتنا متجاورين . متلاصقين على تلك الصخرة العريضة . المختفية تحت سور الكورنيش فى أقصى « بلاج ستانلى » والتى لم نكن نحس أثناء جلساتنا عليها بالعالم حولنا . لم نكن نحس بالشمس إذا استدارت فى أشد أيام الصيف قيظاً وألهبت سيقاننا . وسواعدنا . وصدورنا العارية . ولا بأمواج الشاطىء إذا تكسرت تحت أقدامنا و بللت ثيابنا وتركت رذاذها يتساقط من جبيننا . ولا بنظرات المستحمين والمستحمات التى كانت تبدو فيها الدهشة من ذينك الشابين اللذين

تركا البحر وبهجته وابتعدا عن الجميع ليقنعا بتلك الجلسة المتقشفة الزاهدة على الصخرة الناتئة التى تؤلم أكثر الأجسام خشونة وغلظة !

لم نكن نعبأ بكل ذلك لأننا كنا متحابين . كان يكفى كلاً منا أن يحس أنه إلى جانب الآخر . وأن يتغذى بين كل لحظة وأخرى بالنظر إلى عينى الآخر . نظرة طويلة . نهمة . عطشى . وأن يربت فى حنان ودعة على ظهر كف الآخر . ثم يعود إلى الصمت واستعراض ذكريات الأيام العاشقة الماضية التى كانت مختزنة فى خيالنا كأعز ثروات العمر القصير .

لم يكن فايق يتصور أننى سأستمع إليه من خلف « الكابينة » الأخيرة فى الصف الأسفل من صفوف منازل الشاطىء الخشبية الصغيرة لأننى كنت قد أخبرته بأننى سأسافر إلى القاهرة مع عمتى لعيادة زوجها الذى كنا قد تلقينا يومئذ برقية بنبأ مرضه الخطير . ولكننى فى آخر لحظة لم أسافر معها لأنها فضلت أن تتركنى أشرف على منزلها فى محرم بك بعد أن طردت الخادمة الصغيرة فى ثورة عاصفة قبل سفرها بدقائق !

ولم أكن أتصور أنا الأخرى أن أسمع شفتى فايق تهمسان بتلك الكلمات فى أذن عنايات . كما لم أكن أعلم أن تلك « الكابينة » الأخيرة إنما كانت خاصة بأسرة والدها عبد السلام بك سرى لأنى لمحت فايقاً وأنا مقبلة من بعيد يتقدم نحو الصخرة التى طالما شهدت جلساتنا الغرامية . فخيل إلى أنه سيجلس عليها حتى فى اليوم الذى كان واثقاً فيه بأننى سأكون غائبة عنه

مع عمتى فى القاهرة . وخطر لى أن أفاجئه فاختبأت خلف « الكابينات » وظللت سائرة حتى وصلت الى نهايتها ودرت حولها كيلا يرانى معتزمة أن أسرع بوضع راحتى يدىّ على عينيه وأنا أسأله « أنا مين ؟ » ولكننى فوجئت بسماع تلك الكلمات فذهلت !

لقد كان على موعد مع عنايات . وكانت هى تنتظره فى تلك الساعة المبكرة من الصباح قبل أن تغادر أسرتها المنزل . فلما رأته خرجت اليه فمد ذراعه الطويل الذى طالما ضمنى . وضمها اليه ثم همس فى أذنها .

« أنت لى ياحبيبتى . لى أنا وحدى »

وفتحت فمى إذ ذاك وشهقت شهقة حادة كان يمكن أن تطول وتمتد لولا أننى أسرعت فدفنتها فى حلقى بيدي . وترنح جسمى . وأغمضت عينى ثم أستندت على الجدار الخشبى برهة حتى ابتعد فايق بها .. بالفتاة الأخرى . بعنايات التى حلت محلى . فعدت أدراجى متسللة خلف تلك المنازل الخشبية الى أن صعدت الدرج الرخامى العريض الذى يؤدى الى شارع الكورنيش . .

لم أع بعد ذلك ماحدث لى . همت على وجهى فى الطريق لا ألوى على شىء .. . كان « الكورنيش » قد بدأ يزدحم بالمارة والسيارات والعربات . وكانت الأصوات تدوى حولى من كل جهة وقد خيل إلى أننى لا أسمع شيئاً . كنت أتلفت حولى بين كل خطوة وأخرى خائفة . . لا من السيارات والعربات التى كانت تهدد حياتى بالموت . ولكن من شىء آخر . كنت أتوهم

إذ ذاك أن أمواج البحر قد صعدت الدرج خلفى وتعقبتنى كى تغمرنى وتطوينى . فأخذت أعدو كمجنونة ...

كانت تلك الأمواج تتكسر تحت قدمى وقدم فايق فى أيام غرامنا فلم نكن نعبأ بها ولكنها أخافتنى يومئذ وأثارت فزعى وذعرى . خيل إلي أنها تريد أن تشمت فى . وتسخر منى . . وأن تشعرنى بأنها اطلعت على خيانة فايق لى . وأن تصفع وجهى بهذه الحقيقة الهائلة !

وأخذت أعدو حتى صادفت إحدى الطرق الضيقة الملتوية المتفرعة من شارع « الكورنيش » واطمأنت نفسى إلى أننى ابتعدت عنها . . . عن عنايات وأمواج البحر ! فاستندت إلى سور حديقة كانت تحيط باحدى « فيلات » بولكلى الفخمة وأخذت أجيل البصر حولى كأننى أفيق من حلم مزعج كئيب !

لم أصدق بادىء الأمر ما سمعته قبل ذلك ببضع لحظات !

فايق يخوننى مع فتاة أخرى !

وأخذت أرفع يدى وأمسح بها جبينى . لم أستطع قط أن أزيل من خيالى ذكريات ثلاثة أعوام قضيناها متحابين

— ٢ —

لقد عرفته صيف عام ١٩٣٥ . فى ذلك المكان بالذات . . عند أقصى « بلاج » بولكلى من جهة جليمونوبولو . وكنت إذ ذاك أقضى الصيف كعادتى فى منزل عمتى بمحرم بك . وكنت أستعد لدخول امتحان الدور الثانى فى مدرسة المعلمات السنية لأن المرض عاقنى عن دخول امتحان الدور الأول.. وكنت يوم وقع بصرى عليه للمرة الأولى مستلقية على رمل البلاج و بيدى كتاب من الكتب المقررة على السنة النهائية فى المدرسة السنية أطالعه وأنا لاهية عن كل ما كان حولى . .

ومر فايق من أمامى فى ثوب البحر وقد تدلى عن كتفيه « برنس » أزرق وأخذت قدماه تطبعان على الرمل اللين آثاراً ظاهرة حتى ابتعد عنى.. فرأيتنى ألقى بالكتاب مفتوحاً على صدرى وأتبع ببصرى آثار قدمى ذلك الشاب المجهول الذى لم يكلف نفسه حتى عناء النظر إلى . . وخيل إلى وأنا أنظر إلى قامته المهيبة . وكتفيه العريضين وشعره الأسود الغزير . وتلك الآثار العميقة المرسومة رسماً أنيقاً والتى تركتها قدماه على الرمل . أنه أمير عربى ثرى هرب من قيظ الصحراء وأقبل يقضى فترة من الصيف على شاطئ البحر !

وفجأة التفت فايق خلفه وابتسم كأنه كان واثقاً من أننى أتبع آثار قدميه ! وخجلت من نفسى فعدت أستلقى على ظهرى وأخفى وجهى بين صفحتى الكتاب المفتوح أمامى .

ولكننى لم أفهم يومئذ شيئاً .

وفى اليوم التالى ذهبت فى نفس الموعد وانتظرت فى نفس المكان كأننى على موعد مع الأمير البدوى المجهول !

ومر من أمامى مرة أخرى . وتعمد أن يدنو منى ليقرأ عنوان الكتاب الذى كان بيدى . ولما تبين أنه كتاب مدرسى ابتسم ثم أشار إلى الصخرة المختبئة تحت سور « الكورنيش » وقال لى كأنه يعرفنى :

— إن من يريد مذاكرة دروسه يحسن به أن يجلس هناك وحده . ليبتعد عن ضجة الناس .

وكان ذلك أول عهدى بتلك الصخرة العزيزة . فقد التقينا عندها فى أول لقاء لنا بعد أن قدمنى إلى فايق طبيب الأسرة فى عصر إحدى الأيام بالكازينو .

وعلى تلك الصخرة قبلنى فايق للمرة الأولى . لم أكن قد أسلمت شفتى لرجل من قبل .. فقد كنت أعد نفسى كى أكون معلمة .. أترهب داخل جدران المدرسة كما ترهبت من قبلى عمتى نجية حتى جمعت ثروة صغيرة أهلتها للزواج من مهندس يشغل مركزاً ممتازاً فى وزارة المواصلات .

ولكن فايقاً غير مجرى حياتى كلها . فقد عرضت على وزارة المعارف عقب حصولى على دبلوم المعلمات إحدى وظائف التدريس بالمنيا فاستشرته .. كنا جالسين إذ ذاك على تلك الصخرة الموعودة . كعادتنا . وعندئذ التفت إلى وأمسك بيدى ورفعها إلى فمه فى بطء شديد ثم دفن فيها وجهه وشعرت بعد قليل بشىء ساخن يغمرها . .

كان يبكى ! فصرخت

— لم هذا البكاء يا فايق ؟

فرفع رأسه وأجابنى وقد لمعت الدموع فى عينيه

— لا أدرى . ولكن لم تريدين الابتعاد عنى يا بهيجة ؟

فطوقته بذراعى وألصقت وجهى بوجهه الملتهب ثم قلت له وأنا أدلله كطفل صغير :

— لم أكن أدرى أن هذا الخبر سيحزنك إلى هذا الحد ...

ولاحظت أن المارة قد بدأوا يقفون فوقنا و يطلون علينا بنظرات فضولية شرهة . وعندئذ فتحت مظلتى الصغيرة التى كنت أحملها أثناء مسيرى على « البلاج » وأخفيت بها وجهينا . ثم قبلته قبلة طويلة وأنا أقول .

— هل صدقت أننى مستطيعة الابتعـاد عنك ! لقد كنت أكذب لأعرف أثر الخبر فيك .

فتكلف ابتسامة ثم قال

— لا . إننى أعرف أنك ستنتهين بالابتعاد عنى . أتظننى غبياً ؟ أنا أعرف أن أهلك سوف يلحون عليك فى قبول وظيفة حكومية بعد حصولك على الدبلوم .

— لا تخف يا فايق . سترى . سترى أننى سأظل إلى جانبك إلى أن تنال « الليسانس » بعـد سنتين . إننى لم أرسب قط فى امتحان ولكننى أستطيع أن أفرض أننى رسبت سنتين . وأنتظرك .

— و بعـــد ! — فأجبته وأنا أحفر الرمل بعصى المظلة

— ثم أذهب معك إلى حيث تذهب .

— أترضين إذ ذاك ؟

— كيف لا أرضى ! إن سعادتى فى أن أظل إلى جانبك . دائماً .

— إننى أعتزم الالتحاق بالنيابة . سأنتقل بين إسنا وأسوان وفوه .

— أسوف لا أكون معك ؟

— أجـــل .

— إذن فلا فرق عندى بين كازينو سان ستفانو وطره !

ثم قبلته قبلة طويلة .

ومنذ ذلك اليوم تناقل الناس عنا أننا خطيبان . . وأخذنا نبدو أمام الجميع كأننا فى طريق الزواج الذى كان ينتظرنا بعــد أن ينتهى فايق من دراسته وينال « ليسانس » الحقوق .

ولم نكن نسعد بلقائنا فى القاهرة عند ما كنا نعود إليها فى شتاء كل عام إلا لأننا كنا نستعيد فى كل مرة ذكريات الجلسات الطويلة على صخرتنا العزيزة التى اكتشفناها تحت حائط « الكورنيش » والتى لم يحدث ولا مرة واحدة أننا وجدنا غيرنا جالساً عليها . . كانت تنتظرنا دائماً . . مسخرة لمواعيد لقائنا . وكانت أمواج البحر تغسلها فنذهب لنجدها قد تطهرت من رماد الطريق الذى كان ينهال عليها أثناء غيبتنا . كما كان العشب الأخضر الصغير ينمو حولهـا كأنه يحاول أن يحجبها عن أعين الآخرين حتى نعود إليها !

وقد اعتاد كل منا . أنا وفايق . أن يقصد تلك الصخرة الموعودة عقب وصوله إلى الاسكندرية دائماً فى تلك الساعة المبكرة من الصباح . أى أننا كنا متفاهمين على أن نمر عليها ما دام أحدنا بالاسكندرية فإذا انتظر الموجود منا عندها ولم يحضر الآخر كان ذلك دليلاً لا يقبل الريبة على أنه غائب لأمر هام .

— ٣ —

وأسرعت يومئذ — بعد أن اكتشفت أن فايقاً قد خان ذكرى غرامنا — بالسفر إلى القاهرة .

لم أستطع قط أن أمكث ساعة أخرى فى البلد التى شهدت ذلك الغرام والتى تجثم صخرتنا الموعودة عند شاطئها .

خيل إلى أن البقاء قريبة من تلك الصخرة خيانة أليمة بعد أن تغيرت عاطفتى نحو فايق واستحالت إلى شىء آخر غير الحب الهائل الجبار الذى كنت أحس به نحوه .

ولم تكد تنقضى بضعة أسابيع على عودتى إلى القاهرة حتى قبلت أول وظيفة عرضت على بإحدى مدارس البنات بطنطا .

وتعمدت أن أنهمك فى عملى بالمدرسة إنهماكا شديداً حتى أنسى ذلك الماضى الطويل الذى يشتعل غراماً بفايق . وكنت أحاول جهدى أن أتفادى مقابلة الأشخاص الذين أعرف أن لهم صلة بأسرته حتى لا يحدثونى بشىء عنه .

وعلمت بعد مدة قصيرة أنه أعلن خطوبته على عنايات سرى .

وأنه لما عاد إلى القاهرة كان يبدو معها فى كل مكان وقد لبست «الدبلة» التى قدمها لها .

وانقضت بضعة شهور على إقامتى فى طنطا لم أسمع أثناءها شيئاً آخر عن فايق ولـكننى مع ذلك لم أستطع أن أتحرر من ذكرى الجلسات التى جمعت بينى و بينه على صخرة ستانلى . بل أننى كنت أنسى عندما أختلى بنفسى فى غرفتى فأخرج المنديل وأفرشه على المقعد الجلدى كما كنت أفعل أحياناً عند ما ألاحظ أن ماء البحر قد غمر صخرتنا الموعودة و بللها ! وكثيراً ما دققت النظر إلى بعض الصور التى نشرتها المجلات ابلاج ستانلى باى لأتبين الصخرة الحبيبة فى تلك الصور « الفوتوغرافية » فلا أجد لها أثراً ! وكان يغمرنى إذ ذاك إحساس بالراحة والطمأنينة لأن أحداً غيرنا لم يكتشفها كما اكتشفناها . . وقد خطر لى أن أسافر إلى الأسكندرية وأن أستأجر بضعة رجال يدفعون بها إلى الماء حتى تغرق وتختفى . ثم أعود مطمئنة إلى أنها اختفت كما اختفى غرامى بفايق . . ولـكننى كنت فى كل مرة أثور على ذلك الخاطر فأمزق المجلات التى كانت تزين تلك الصور صفحات أبوابها التى تتحدث عن أخبار « البلاج » وألقى بها جانباً ثم أسرع بمغادرة المنزل والمدرسة وأسير هائمة على وجهى خارج البـلد لأستنشق الهواء إذ أن ذكرى صخرتنا كانت دائماً تثير شجونى وتبعث الدموع إلى مآقى وتخنق بها أنفاسى !

إلى أن عرفت الدكتور عمر صدقى طبيب العيون الذى كان يتردد على

المدرسة للاشراف على الطالبات المريضات . كان إعجابه بى واضحاً بعد بضع مرات تحدث فيها إلى حديثاً عادياً . وكنت أحس دائماً بأن فى صوته شيئاً يريد أن يصارحنى به دون أن يجرؤ . إلى أن دعانى ذات يوم الذهاب معه إلى السينما فرفعت بصرى إليه وقلت له فى سذاجة

— ماذا حدث لك يادكتور ؟

فقال لى وقد احمر وجهه خجلا

— أية غرابة فى هذه الدعوة !

— كيف أذهب معك إلى السينما فى بلدة كطنطا ! أترضى لى أن يتحدث النـاس غداً عن المدرّسة التى لم ترع كرامة عملها فصحبت طبيباً شاباً إلى السينما !

— ومن أين لهم أن يعرفوا حقيقة العلاقة التى تربطنى بك ؟

ووضع يده فى جيبه إذ ذاك فقلت له وقد احمر وجهى أنا الأخرى

— أية علاقة يادكتور ؟ إننى لا أعرف أن هناك أية علاقة تربطنا غير علاقة العمل فى المدرسة

فأسرع إذ ذاك وأخرج يده من جيبه وأمسك بيدى ثم وضع فى أصبعى « دبلة » الخطوبة وهو يتمتم

— لا . إنك نسيتِ أنك زوجتى يا بهيجة . منذ أول يوم وقع بصرى فيه عليك شعرت بأنك الفتاة الوحيدة فى هذا العالم التى يمكن أن تحمل إسمى وتسعدنى

ولا أود أن أطيل عليك الحديث فى هذه الرسالة فأكتفى بأن عمر شاء أن أستقيل من عملى فى وزارة المعارف وألح فى أن نسرع بالزواج

وشعرت إذ ذاك بضميرى يلح على بأن أصارحه من جهتى — بعد أن تحققت من حبه الشديد لى — بماضى مع فايق. فصارحته به. ولقد كان يومئذ طيباً غاية الطيبة معى فقال بصوت متهدج

— إن هذا كله لا يعنينى. كل ما أتمناه أن تكونى لى منذ اليوم. وأن تظلى لى. لى أنا وحدى. أتستطيعين ؟

فأجبته

— أجل.

وكتبت لعمتى نجية فأقبلت من الإسكندرية وحضرت حفلة زفافى إلى الدكتور عمر. وعرف أهل طنطا أنى استقلت من وظيفتى لأسخر حياتى كلها لإسعاد زوجى الذى أثبت فى كل مناسبة منذ وقع بصره على أنه يحبنى حتى الجنون

— ٤ —

كان يخيل إلى بادىء الأمر أننى سأستطيع أن أقطع صلتى بذكرى ماضى مع فايق ولكننى اكتشفت بعد مدة قصيرة من حياتى مع زوجى أن هناك شيئاً يفصل بينى وبينه ... شيئاً كموجة عالية فى ليلة حالكة السواد تحجبه عنى !

وكثيراً ما كان عمر يلاحظ تلك الكآبة التي كانت تبدو على وأنا جالسة في شرفة منزلنا الصغير القائم عند نهاية المدينة والمطل على مزارع القرى العديدة المتاخمة لعاصمة الغربية . فكان يتظاهر أحياناً بأنه لم يلحظ شيئاً ثم يتركني لعزلتي . شاردة الفكر . ساهمة البصر . أنظر إلى الأفق البعيد ساعات طوال دون أن أنطق حرفاً واحداً ... ولكنه كان يرثى لى أحياناً فيقترب منى ثم يحنو على ويسألنى فى دعة رقيقة

— ماذا بك ؟ ما الذى يضايقك ياحبيبتى ؟

فكنت أجيبه دائما وأنا أتكلف الابتسام

— لا شيء . لا شيء يضايقنى أبداً .

ولكن جوابه كان دائما لا يتغير وقد بدا الحزن على نبرات صوته .

— إن الدموع تلمع فى عينيك الجميلتين . . . كم أخشى أن أكون أنا السبب وأن أكون بزواجى منك قد اعتديت على ذكرى عزيزة أقرب إلى قلبك منى .

وكنت أفهم تواً — فى كل مرة — أنه يشير من بعيد إلى صلتى السابقة بفايق عباس التى اعترفت بها له قبل الزواج . فقبلته ذات مرة وقلت له

— إننى زوجتك يا حبيبى . لقد صارحتك بكل ما كان بينى وبين فايق قبل أن أعرفك . لأننى لم أرض لك أن يظل سر هذا الماضى مكتوماً فى صدرى . فيبعدنى عنك . ولكن تلك العلاقة أصبحت ذكرى قديمة . كنت طفلة وكان هو الآخر طفلا . ونسى كلانا تلك القصة . ألم يحدث

لك أن أعجبت بقصة معينة من قصص « الشاطر محمد » فأخذت تكررها .
ثم انتقلت من بلدة إلى أخرى وتغيرت الوجوه التى كانت تحكى لك تلك
القصة أو التى كنت تحكيها لها . ومرت السنين فنسيتها ...

وهز زوجى رأسه وقد شاعت فى وجهه ابتسامه هادئة . وخيل إلى
أنه اقتنع . واطمأن .

وأحسست إذ ذاك أن الظل الذى كان يفصل بينى و بين عمر قد تلاشى
فضمنى إلى صدره . وتعانقنا عناقاً طو يلا .

وانقضى على زواجنا ثلاثة أشهر . واعتدنا أن نقضى عطلة «آخر الاسبوع»
فى القاهرة فكنا ننتهزها فرصة سانحة لتأثيث منزلنا . وشغلنى ذلك عن
تذكر غرامى الماضى بفايق فلم أعد أذكر شيئاً من جلساتنا على صخرة
« ستانلى » ولا عن أحاديثه التى طالما طربت لسماعها كأننى أنصت إلى
أغنية شجية . . .

إلى أن حدث ذات ليلة أن تركنى زوجى وذهب لعيادة مرضاه فى السنطة
وأردت أن أقتل الوقت فتناولت كتابا من مكتبة زوجى لم أكد أفتحه
حتى اتضح لى أنه ديوان للشاعر أحمد رامى ذكر فى مقدمته أنه كتب
الكثير من أشعاره على شاطىء البحر فى رأس البر . ولم أكد أفتح إحدى
صفحاته حتى وقع نظرى على قطعة شعرية عنوانها « صخرة الموعد » فارتعد
الكتاب فى يدى ولم أشعر إلا وهو يسقط مفتوحا على صدرى كما سقط
الكتاب الذى كنت أطالع فيه منذ ثلاثة أعوام وأنا مستلقية على رمل

« بولكلى » عنـد ما وقع بصرى لأول مرة على فايق وهو يطبع أرض الشاطىء المبتل بآثار قدميه ! وهاجمتنى ذكريات الصخرة الموعودة فى عنف فلم أستطع أن أتحررمنها . وأخذت أستعيد شيئاً فشيئاً كل شىء مرّ بى فى تلك الأعوام الثلاثة . كلماته الأولى التى ملأت أذنى . فكيانى . فروحى بهجة ونشوة وحباً . نزهاتنا على الشاطىء فى الساعات المبكرة من الصباح وأهل الإسكندرية يغطون فى نومهم وهواء البحر لايزال نقياً لم تلوثه أنفاس المستحمين والمستحمات . والطبيعة ساكنة . هادئة . حنون لم تعبس لصرخاتهم وصيحاتهم المنكرة . جلساتنا على الصخرة عند ما يبدأ الناس فى الإقبال على الشاطىء . . .

وانتصف الليل قبل أن أستطيع أبعاد تلك الذكرى عن خيالى . . . وعاد زوجى فوجدنى مازلت مكانى عاجزة عن أن أتحرك والكتاب منكفىء على صدرى المتهدج كأننى سرت على قدمى من طنطا إلى بولكلى ! واقترب منى ودقق النظر إلى عينى . . . كانتا مغرورقتين بالدموع . فسألنى

— ألا زلت تبكين ! ماذا بك يا بهيجه ؟

فتناولت يده ثم أدنيتها من فمى وقبلتها دون أن أجيب . ومرت فترة صمت أطال زوجى أثناءها النظر إلى عينىّ . وعاد يسألنى

— ماذا جرى ؟ — فاكتفيت بأن أجبته

— لا أدرى . يظهر أننى متعبة .

وعرض على أن أسافر إلى عزبة أبيـه القريبة من مركز كفر الشيخ

ولكنى رفضت بحدة . لقد ذعرت من مجرد تصورى أننى سأكون وحيدة هناك وأن الوحدة ستتيح لى فرصة استعراض الماضى كله ...

وأقبل صيف عام ١٩٣٩ وأخذت المجلات تنشر أخبار الإسكندرية وبدأت الصحف اليومية تضع صور الصفوف الجديدة من « الكابينات » التى أضيفت إلى « بلاج ستانلى » وثارت فى نفسى مرة أخرى ثورة سممت حياتى كلها . فلم أعد أطيق الحياة فى طنطا ولكننى لم أجرؤ أن أصارح زوجى بذلك

ولحظ هو ذلك جيداً فجاءنى ذات يوم وقال لى فى شىء من الامتعاض

— يخيل إلى يابهيجة أن الاستمرار على هذه الحياة لم يعد ممكناً . إننى شاعر بأننى تسببت فى إشقائك . وقد بدأ ضميرى يؤنبنى و يمعن فى إيلامى ولكننى لا أعرف ماذا أفعل لكى أريحك

فقلت له وأنا أغالب البكاء

— كل ما أرجوه منك أن تمهلنى قليلا . لا تتعجل ياحبيبى . افرض أننى إحدى مرضاك كلفت بعلاجها من مرض عصبى حاد أوحالة عقلية مضنية

وقد حاول المسكين أن يطيعنى فينتظر ولكنه لم يستطع .

وفوجئت ذات يوم بساع المستشفى يحمل إلى رسالة صغيرة أخبرنى فيها عمر أنه اضطر للسفر فجأة إلى كفر الشيخ تلبية لدعوة أبيه . . .

. . . .

— ٥ —

وفى اليوم التالى جاءتنى رسالة من عمتى نجية تسألنى فيها عن صحتى وعما إذا كنت مرتاحة إلى حياتى فى طنطا . وقد ختمتها بهذه الجملة التى ظننت بأنها ستزيد اطمئنانى

« علمت اليوم من بيت عبد السلام بك سرى أن فايق خطيبك السابق قد طلق عروسه عنايات ولو علمت السبب فى الطلاق لدهشت كما دهشت أنا . . فقد أحيل عبد السلام بك إلى المعاش واتضح أن معاشه لا يتجاوز العشرين جنيهاً فطلق فايق ابنته . إحمدى الله يابهيجة لأنه أنقذك من الحياة التى كان يمكن أن يدفعك القدر إليها لو تم زواجك به »

ولم أكد أتم هذه الرسالة حتى ارتديت ثيابى وذهبت إلى محطة طنطا لأركب أول قطار إلى الأسكندرية . ولما وصلت توجهت إلى منزل عمتى بمحرم بك وعلم الجيران بقدومى فاجتمعوا لتهنئتى وكانت قد وصلت إليهم أخبار زواجى بالدكتور عمر صدقى وقد لاحظت فى نظرات الفتيات منهن علامات الحسد لتوفيقى فى العثور على زوج شاب له مكانة زوجى الإجتماعية وإيراده الكبير

وقضيت الليلة بمنزل عمتى بعد أن قاومت مقاومة هائلة كيلا أبدو مضطربة شاردة الفكر أمامها وأمام الزائرات اللاتى أقبلن لتحيتى

وفى صباح اليوم التالى ارتديت ثوباً من ثياب « البلاج » وغادرت المنزل دون أن يشعر بى أحد واتجهت تواً إلى بولكلى وهبطت الدرج الكبير المؤدى إلى إفريز «البلاج» ثم اتجهت مسرعة إلى الصخرة الموعودة وأنا أكاد أمسك بقلبى فزعاً خشية ألا أجدها . . . ولم أكد أصل إليها حتى أسرعت بالجلوس عليها وأنا أتلفت حولى كمجنونه !

ومرت أمامى دنيا من ذكريات الغرام طالت ثلاثة أعوام . .

ولشد ما دهشت بعد قليل إذ سمعت صوتاً ينادينى باسمى فلما رفعت رأسى صدرت منى شهقة حادة كاد يتمزق لها صدرى . لقد رأيته . . . رأيت فايقاً مطلاً من السور الذى يفصل « البلاج » عن طريق الكورنيش ودار دورة سريعة ثم أقبل إلى وقد تهلل وجهه بشراً وفرحاً

كان حلماً غريباً . . . خيل إلى أن شيئاً لم يحدث منذ المرة الأخيرة التى تركته فيها عند نفس الصخرة بعد أن أخبرته أنى أعتزم السفر إلى القاهرة مع عمتى لعيادة زوجها المريض

كان فايق لايزال محتفظاً بقامته المهيبة . ونظراته العميقة الغنية بكل معانى الرجولة . وشعره الأسود اللامع المتموج الذى طالما دفنت فيه أصابعى

ومد إلى يده وصافحنى بحرارة وهو يقول

— كيف حالك يا بهيجة . متى حضرت إلى الأسكندرية ؟

وتنبهت تواً إلى أن هناك أشياء عديدة أصبحت تفصلنى عنه . . ألم يعد يجهل متى أقبلت إلى الاسكندرية ؟ ومددت إليه يدى

أرد تحيته ثم قلت له وأنا أحس شيئاً فشيئاً بتلاشى الحلم . و بأننا بتنا نبدو كغريبين التقيا فجأة عند تلك الصخرة

— حضرت أمس

— كم يوماً ستقضين هنا ؟

— يومين — وقطب جبينه كأنه يعترض على قصر المدة ثم هز رأسه فجأة وتمتم

— آه . لقد تزوجتِ . مبروك — فقلت له فى صوت بذلت جهداً هائلاً لكى يبدو طبيعياً لا رجفة فيه

— الله يبارك فيك

ورمق فايق المكان الخالى من الصخرة التى كنت جالسة عليها . . . مكانه الذى طالما جلس عليه. ثم قال لى وقد بدا أنه يتردد فى الجلوس

— إننى أعرف أننى أجرمت فى حقك . باقدامى على الاتصال بعنايات والزواج منها ولكننى لا أقوى على أن أطلب منك الصفح

فعدت أتكلف الهدوء وقلت

— على فكرة . كيف حال عنايات الآن ؟

— لا أدرى — فتجاهلت وسألته

— كيف !

— طلقتها

— ولم ؟

— أخشى ألا تصدق . إننى لم أحبها قط . لا قبل الزواج ولا بعده

ولمعت عيناه إذ ذاك لمعاناً غريباً فهمت معناه . كان يخشى أن يصارحنى بما كنت أنا الأخرى أخشى أن أصارحه به . من أنه ظل مبقياً على حبه لي كما ظللت أنا مبقية على حبي له حتى بعد كل ما حدث !

وانقضت فترة صمت وعادت أمواج «ستانلى باى» تتكسر تحت أقدامنا وتطاير رذاذها على جبينينا وتندت قطراته على وجناتنا . وخيل الى اننا نبكى ولكننى فى الواقع لم أذرف دمعة واحدة حتى دهشت من نفسى وانكرت منه قوله لى

— كنتُ مجنوناً إذ أقدمت على الغدر بك والزواج منها . لا يمكنك أن تتصورى كم أنا نادم !

وسكت قليلا ثم قال وهو يشيح بوجهه عنى

— إننى أعرف أن ندمى جاء متأخراً

ونهضت واقفة إذ ذاك ثم قلت له وأنا أمد يدى

— لابد أن أعود الى المنزل

وعندئذ قال لى فى صوت منتحب

— لى رجاء واحد يابهيجة . أتقدم به اليك قبل أن تتركينى

— وما هو ؟

— أن تسمحى لى بالجلوس الى جانبك كما كنا نفعل

— لم ؟

— لا تخافى . ثقى أنى لن أمس حتى أطراف ثوبك . أنا مقدر أنك زوجة رجل آخر . له عليك حقوق لم أعد أملكها

فأطرقت برأسى دون أن أنظر إليه وجلست ثم جلس فايق إلى جانبى ورفع كل منا رأسه إلى الأفق البعيد .

كانت الشمس إذ ذاك قد بدأت تشرق وترسل شعاعها إلى أمواج الصباح الهادئة اللينة وأخذت أنظار المارة فى شارع الكورنيش تلحظنا كما كانت تفعل من قبل فمددت يدى فى حركة آلية وفتحت مظلتى لأخفى بها رأسينا

ونسى فايق وعده لى فشعرت بذراعه القوى الطويل يمتد ويحاول تطويقى وهو يهمس

— بهيجه ! — وعندئذ تنبهت توا فألقيت بالمظلة إلى الأرض وقلت له وأنا أنفر مبتعدة

— لقد نسيت وعدك لى . ابعد عنى .

— لا أستطيع . إننى أحبك . لازلت أحبك أكثر من أى وقت مضى

ودمعت عيناى إذ ذاك ولكنى تمالكت قواى وقلت

— إننى أحمل اسم رجل آخر . غيرك . لم يسئ إلى قط كما أسأت أنت

— ولكننى واثق أنك لا زلت تحبيننى .

— لم هذا الوثوق ؟ — فابتسم وسألنى.

— لم جئت إلى هنا ؟

— لأننى لم أستطع أن أقاوم الرغبة فى المجىء . أؤكد لك أننى أنا نفسى لم أدر لما جئت . ولكنى عرفت الآن .

— لِـمَ ؟

وعندئذ تكلمت كأننى أهذى فى حلم

— أتعرف أولئك الذين يتحركون من فراشهم أثناء النوم ويسيرون ويتكلمون ويغادرون بيوتهم ثم يرجعون ليناموا ؟ لقد كنت أعيش وأتحرك وأتكلم وأنا شبه نائمة طيلة العام الماضى . منذ سمعتك تتحدث إلى عنايات وتقول لها « أنتِ لى يا حبيبتى » . وظللت هكذا حتى تزوجت فلم أستفق من نومى . ظللت أحلم بهذا المكان . أنت وأنا جالسين على هذه الصخرة . لم أتمكن قط من أن أبعدك عنى . ظللت فريسة شعور يجذبنى إلى هنا . كان يجب أن أجىء لأننى تعلمت على هذه الصخرة كيف أحب. فكان يجب أن أتعلم عليها كيف أكره .

وملأت صدرى بهواء البحر ثم قلت وأنا أرفع رأسى

— إننى أحس الآن أننى شفيت وتطهرت .

— وأنا ؟ إنك تتكلمين عن نفسك وتذكرين أنك شفيت من حبك ولكننى لم أشف . سأتعذب

فابتسمت وهززت رأسى ثم قلت له وقد استمدت كل هدوئى

— أتظن ؟ فكر قليلا يا فايق تر أنك لو لم تختلف مع زوجتك ولو لم تنفصل عنها لماجئت إلى هنا قط . أنك متوهم أنك لازلت تحبنى مجرد وهم. كل منا أنت وأنا . لمـّا برم بالحياة التى يعيشها أحس بحنين إلى هذا المكان الذى يعيد إلى الذاكرة أسعد أويقات الحياة . مجىء كل منا إنما هو للاستزادة بقوة تعيننا على العودة إلى حياتنا الجديدة التى يعيشها كلانا بعد أن افترقنا . إننا — فى الواقع — نستعين باللقاء فوق هذه الصخرة على خيانة ذكرياتها . أليس كذلك ؟

فنظر إلى نظرة طويلة ثم قال

— كيف عرفت ذلك ؟

— ألا تحس الآن أننى محقة ؟

فأطرق إلى الأرض ثم تمتم كأنه يتحدث وهو نائم

— أجل . كان يجب أن أتمهل قليلاً فلاألق بعنايات إلى الطريق عقب وفاة أبيها . لقد أذللت كبرياءها كامرأة إذ أظهرت للجميع أننى ما قبلتها زوجة إلا طمعاً فى ثروة أبيها . . . وكبريائى أنا أيضاً . لا يجب أن أغدر — مرة أخرى — بامرأة لم تسىء إلى

ثم ملأ صدره بهواء الصباح فى شهيق طويل

وربتُّ بيدى على يده التى تقلصت فوق حافة الصخرة وقلت له هامسة.

— لم يفت الأوان بعد . عد إليها .

— سأعود .

— إننى سعيدة إذ أسمع ذلك منك . هيا بنا نسرع إلى « البلد »

— ٦ —

لما عدت إلى طنطا فى مساء ذلك اليوم نفسه لم يكن زوجى قد عاد من كفر الشيخ . فلما أقبل فى اليوم التالى استطعت أن أقنعه تواً بأن ذلك الظل الكئيب الذى كان يفصل بينى و بينه قد تلاشى .

وكان لقاء الصخرة الأخير بينى و بين فايق هو السر الوحيد الذى أخفيته عن زوجى .

ولكننا بدأنا بعد ذلك حياة تفاهمت فيها روحانا »

ليـــلة عاصفة

رسالة لم ترسل

« سيدتى

أكتب إليك دون أن تعرفيني . فلم يسبق أن قدمنى أحد إليك
ولم يسبق أن سمعت باسمى . كما لم يسبق أن وقع بصرك علىّ . لقد حرصت
أنا على ذلك دائماً مع أن أكثر من فرصة سنحت لكى أراك فلم أفعل .
كنت أوقن دائماً بأننا يجب ألا نتلاقى وأن أحدانا — فقط — يجب أن
تستأثر بالسعادة والهدوء !

لعلك تدهشين يا سيدتى من هذه اللهجة التى أحدثك بها . وأغلب
ظنى أنك تقلبين الآن صفحات هذه الرسالة لتعرفى اسم التى تكتب
إليك بهذه اللهجة دون سابق صلة . ولكننى أعود فاطمئنك أننى
امرأة تجهلينها وكانت تود أن تظلى تجهلينها حتى الموت ... لولا أننى رأيتك
منذ نحو ساعتين فى الحفلة الساهرة التى أقامتها جمعية تحسين الصحة بالسراى
الكبرى التى تتوسط أرض الجمعية الزراعية بالجزيرة وأنت تتأبطين ذراع
زوجك .. نعم زوجك الدكتور فاضل حلمى وخلفكما طفلكما ...

لقد مررتم علىّ وأنا واقفة أمام إحدى الواجهات الزجاجية التى عرضت
فيها لعب الأطفال . ليس لى طفل . فأنا لم أتزوج كما تزوجتِ أنت . ولكننى


ليلة عاصفة

أعنى بالأطفال عناية خاصة ويسعدنى دائما أن أتلمس ما يحبب إلى كل طفل تلده أم غيرى . فلست أماً . . . ولكننى أرجو أن تثق بأنى كنت أستطيع أن أكون أم ذلك الطفل الجميل الأشقر ذى الشعر الذهبى الذى كان يرتدى بذلة كاملة من بذل البحارة وقد تدلت « القلابة » البيضاء العريضة على ظهره تزينها تلك الخطوط الكحلية الرفيعة . فلم أرض . وأبيت إباء عنيداً . . .

. . . .

إنها قصة قديمة يا سيدتى . تعود إلى ستة أعوام مضت . . . إلى أيام المعرض الزراعى الصناعى الذى أقيم عام ١٩٣٦

كنت إذ ذاك أتلقى دروس التمريض فى مدرسة القابلات بمستشفى القصر العينى . وكان فاضل — زوجك الدكتور فاضل — إذ ذاك طالباً بالسنة النهائية فى كلية الطب . يدخل إلى القسم الذى كنت أعمل فيه كغيره من الطلبة مع أستاذ أمراض النساء . ويشرف على عملنا فى المستشفى الإشراف الذى اعتاد بعض طلبة الطب أن يتوصلوا به إلى اجتذاب إعجاب الممرضات وطلبة قسم القابلات !

لا أريد أن أغلو فى امتداح نفسى . ولكن يكفى أن تسألى إحدى زميلاتى فى تلك الأيام عن « سيرى » أثناء دراستى بالقصر العينى لكى توقنى بأننى كنت مثال الفتاة التى تحرص على أن تظل سمعتها بمنأى عن أى شين يمسها ولو من بعيد . . .

لم أكن قبيحة . . لا . . إن فاضلا يشهد قبل غيره بأننى كنت أجمل طالبات المستشفى ولم يكن يخلو يوم واحد من مشاجرة بين طالبين بسببى أنا . . وأنا فى دهشة من حماسة المتشاجرين من أجلى !

ولم يقتصر الأمر على الطلبة فقط بل تعداه إلى بعض الأطباء الذين كانوا بحكم عملهم كثيرى الاتصال بالقسم الذى كنت أعمل فيه . ولقد بلغ من ضيقى لكثرة الإلحاح الهامس فى أذنى بأن أقبل دعوة لتناول العشاء أو مشاهدة السينما — الدعوة التى كانت تتكرر بطريقة متشابهة مملة — أن فكرت ذات يوم فى حيلة خبيثة فتظاهرت بقبول دعوة ثلاثة منهم على التوالى وحددت لهم ساعة واحدة فى مساء ذلك اليوم أمام باب فندق سميراميس ثم ذهب الثلاثة فى الموعد وانتظروا طويلا إلا أننى لم أذهب . ولما توجهت إلى المستشفى فى اليوم التالى كانت ثورة هائلة . . . ثورة مكتومة لم تظهر إلا فى وجوم الوجوه وتوحش القسمات وحقد العيون وحمى النظرات ...!

ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يصارحنى بشىء وإن صارحوا بعض زميلاتى . فأجبت من فاتحنى فى الأمر منهن جواباً اعتدت ألا أغيره

— ما دمت لا أحبه . فلم أقبل دعوته ؟

تلك كانت طريقتى ... وكما قلت لك . تستطيعين يا سيدتى إذ استفسرتِ من أى شخص كان متصلاً بى فى ذلك الوقت أن تعرفى بأن تلك الطريقة هى التى جعلت رجال المستشفى يطلقون علىّ اسم « أم راس ناشفة » !

ولكن « راسى الناشفة » لم تحتفظ بعنادها طويلا بعد أن كثر تردد فاضل على القسم !

كان إذ ذاك فى الثانية والعشرين من عمره . وكان معروفاً فى الكلية بذكائه الحاد وبأنه لم يرسب مرةً واحدة فى امتحان من امتحاناتها الصعبة فكان موضع تقدير أساتذته وزملائه .

ولقد اعتاد فى الأيام الأولى من تردده على « القسم » أن يدخل فى آخر صف من صفوف الطلبة الداخلين وأن يقف عند الباب يستمع إلى شرح الأستاذ وفى يده « نوتة » صغيرة كان يدون فيها بعض ما يرى تدوينه من الشرح . ولكننى لاحظت أنه كان يختلس أحياناً نظرة خاطفة إلى ثم يعود إلى متابعة الكتابة !

لم أعن فى بادئ الأمر به فلم يكن — كما قلت لك — أول رجل حاول إغرائى وتظاهر بالاعجاب بى . ولكنه عند ما تكرر تردده استلفت نظرى . . لم يكن ينظر إلى أية واحدة أخرى من زميلاتى . بل كان يقنع بالنظر إلىّ من بعيد فإذا رآنى انتبهتُ إليه أحمرّ وجهه ثم تظاهر بالانتباه إلى الأستاذ وتدوين ملاحظاته !

وبدأ اهتمامى به عند ما سألت زميلتى « صالحة » عنه . . . عما إذا كان قد سبق له أن غازل غيرى من قبلى فأجابتنى قائلة .

— إطمئنى . لا وقت لديه لمثل هذا العبث . حتى فى فترات الراحة بين المحاضرات لا تخلو يده من كتاب . . إنه الوحيد الذى لم أسمع شيئاً عن

سهراته أو مغامراته . ولقد أثار دهشتى عندما لاحظت أنه لا يترك الدقائق القليلة التى يقضيها فى الترام عند قدومه إلى الكلية أو عودته إلى بيته دون مذاكرة وأنه يتعمد اختيار مجلسه فى آخر مقعد من آخر عربة .

إلى أن كان ذلك اليوم الذى انحفرت كل ثانية من ثوانى ساعاته فى خيالى . . . الخيال الذى كان يداعب « الرأس الناشفة » العتية الصلبة . كما تنحفر قصيدة من شعر قديم فى حجر من أحجار الجرانيت المتناثر على أرضٍ بكر قاحلة لم تطأها قدم منذ قديم الأزل !

كان يوم خميس . وكنت قد خلعت ثوب المستشفى وتأهبت لمغادرة إلى منزلى . وفيما أنا مهرولة لأتقدم مسرعة إلى محطة الترام سمعت خطى تتبعنى فلما التفت رأيت فاضلا يسير خلفى . . . لم أدر لم ارتبكت إذ ذاك ولكننى تلفت حولى كأننى كنت أخشى أن يرانا — أنا وفاضل — أحد وغمرنى إذ ذاك شعور غريب بأن طلبة الكلية جميعهم وأساتذتها والمارين فى الطريق يعرفون بأن هناك شيئاً . . . يربط بين قلبينا !

ووقفت فى محطة الترام . وانتظرت أن يدنو فاضل منى ولكنه لم يفعل بل ظل بعيداً . . . بين عدد كبير من الطلبة المزدحمين المتأهبين فى لهفة للعودة إلى دورهم . وأقبل الترام فقفزت إلى آخر مقعد من مقاعده عند المكان الذى حدثتنى زميلتى بأن فاضلا إعتاد أن يجلس فيه . واشتد خفقان قلبى إذ ذاك فقد خشيت ألا يقبل فاضل . وزاغت عيناى بين الجمع المحتشد على إفريز محطة الترام . ولمحته يشق لنفسه طريقاً حتى وصل

إلى . . . إلى حيث كنت جالسة فصعد ثم وقف أمامى وتظاهر بالقراءة فى إحدى كتبه !

وتحرك الترام الحاشد بجموع طلبة الطب . ورفعت بصرى إلى وجه فاضل فرأيته ينظر إلى نظرة حالمة طويلة كأنه يسألنى عن أشياء كثيرة وكأن العالم قد خلا إلا منا !

وخيل إلى أن تلك الأشياء التى أراد أن يسألنى عنها قد عرفتها تماماً كأنه نطق بها وعبر عنها . سألنى عن ماضىّ . هل أحببت رجلاً غيره ؟ هل أقبل أن يهبنى قلبه ؟ هل أعِدْ إذا أحببته بأن أكون وفية له إلى الأبد ؟

تعرفين يا سيدتى نظرات فاضل . كله عينان !

ووقف الترام عند شارع الدواوين . ونزلت منه لأتجه إلى منزلى بعابدين وعندئذ شعرت بيده تمتد وتضع فى يدى شيئاً صغيراً فتناولته . . وطويت عليه أصابعى .

ولما ابتعدت فتحت يدى فرأيت ورقة صغيرة لا زلت أحتفظ بها حتى اليوم . ولا زلت أحفظ ما كان مسطوراً فيها عن ظهر قلب :

« لم أستطع من قبل أن أبوح لك بما أريد . منذ ثلاثة أشهر وأنا أحاول أن أتشجع فتخوننى قواى ! إننى أخشى أن تخجل رجولتى من هذا الاعتراف ولكننى أحس تماماً بأننى لم أعد الرجل الذى أعهده فى نفسى . . منذ رأيتك لأول مرة فى غرفة العمليات وقد التف الوشاح الحريرى الأحمر على عنقك كخاتم

من نار وأنا أحترق ولا زلت أحترق حتى اليوم . لا أدرى . أكاد أنكر نفسى ... يخيل إلى أننى ارتبطت بك إلى الأبد ... لا أذكر أننى دخلت إلى القسم مرة فى الشهور الثلاثة الأخيرة واستطعت أن أفهم شيئاً مما سمعته . إننى أحيا معك بخيالى .. إنك غذاء هذا الخيال . لم أفكر يوماً فى أن أكون شاعراً . ولكننى عند ما أراك يخيل إلى أن الله قد خلقك . قد نحتك نحتاً . لكى يستوحى الشعراء منك أرق قصائدهم وأبقاها على الخلود .. أشعر بأننى ما كان يجب أن أندفع فى الكتابة إليك فى أول رسالة . ولكن عند ما تعلمين أن هناك أفكاراً ظلت تحتبس فى رأسى ثلاثة شهور كاملة دون أن أوفق إلى مصارحتك بها تلتمسين لى عذراً . لا أستطيع لن أقول لك إنى أحبك فهناك كثيرون قبلى قالوا هذه الكلمة . ولا أعتقد قط أن العاطفة التى تتسيطر عل كعاطفتهم . إنها شىء آخر أسمى وأنبل .. أنتِ معى فى كل وقت . فى بيتٍ واحد يضمنا نحن الاثنين منذ بضعة أعوام . إنك أمامى عند طرف المائده الأخرى .. خيل إلى أن أوهمك بأنى الآن أعطيك رسالة جاءت من أسرتك ففضضتُ مظروفها خطأً وجلست أنظر إليكِ وأنتِ تتناولين الرسالة وتتبينين أنها رسالة حب منى . . . منى أنا الذى أعيش معك فى بيتٍ واحد ! هكذا أحيا بهذا الخيال . . . أنك أصبحتِ لى . تعرفين طبعاً معنى أنك أصبحتِ لى . أنا وحدى !

أحياناً أجلس إلى المائدة لأتناول الطعام عقب عودتى من الكلية — إننى
كما يجب أن تعلمى أعيش وحدى لأن أسرتى فى الريف — فآمر خادمتى
القروية العجوز أن تقدم الطعام لاثنين . لك ولى . وأجلس إلى المائدة
فلا أبدأ بالأكل لأنك لم تأتِ بعد . ويطول انتظارى ... وتتردد علىّ
الخادمة العجوز التى حملتنى على كتفها طفلاً وهى ترنو إلى بعينين ذاهلتين
كأنها تنظر إلى مجنونٍ ينتظر زائراً مجهولا لم يحضر قط ولن يحضر إلى
الأبد ! ولكننى لم أعبأ بها مرة واحدة بل كنت أصر على انتظارك وأنا
أنقل بصرى بين باب الغرفة والمقعد الذى أعددته لك حتى يتثلج الطعام ..
فأتناوله لكيلا يغرينى على النهمُ وسرعة الالتهام وأنت غائبة ! وكثيراً
ما غضبنا أنا وأنت لسبب تافه . أحياناً لأنى أردت أن تلفى حول عنقك
ذلك الوشاح الحريرى الأحمر الذى رأيتك به أول مرة وقع بصرى عليك
فلم توافقى لأن البرد الذى كنت تشكين منه يوم لففتِه حول عنقك قد
زال فلم يعد هناك ما يدعو إلى وضعه . وتشتد المناقشة بيننا . . . وتتحول
إلى شجار ويلوى كل منا « بوزه » فأتظاهر أنا بأننى أعنى بالنظر إلى
النيل من نافذة غرفتى التى باحدى العمارات الجديدة القائمة عند محطة
« العجوزة » فى طريق الجيزة وتتكلفين أنتِ الهدوء فترتلين بصوتٍ خافت
أنشودة لأم كلثوم فأضطر أنا آخر الأمر أن أدنوَ منك وأربت على كتفك
وأنا أتمتم فى حنان :

— لم هذا العناد يا « زيزى » ؟ — ولقد كان جوابك فى كل مرة لا يتغير .

— ألم تعرف بعد أننى عنيدة و « راسى ناشفه » ؟

لقد أطلتُ الكتابة إليك . وثق أننى لا أرمى إلى غرض . فأنا أستطيع أن أعيش هكذا . بخيالى معك . ولقد كنت أود أن أظل مخفياً عاطفتى عنك حتى تعرفيها . بأية وسيلة . ولكن قواى — كما صارحتك — خانتنى فكتبت . . »

هذه هى الرسالة التى كتبها إلى فاضل والتى لا زلت أحتفظ بها حتى اليوم فكانت بدء علاقتنا . وإن كانت تلك العلاقة تعود ـ فى خياله ـ إلى ثلاثة شهور قبل كتابتها !

لا أخفى عنك ـ يا سيدتى ـ أننى زهوت عند ما تلقيتها . كنت إذ ذاك فى التاسعة عشر من عمرى وكنت أحس وأنا أتلوها أننى أمام رجل يمتاز بشخصية أخرى أسمى من شخصيات غيره من زملائه . . لم يفعل كغيره . لم يقترب منى ليهمس كلمة إعجاب بعينىّ أو بثوبى أو بالعطر الذى يفوح من شعرى . ولم يمد يده ليوهمنى بأنه سيصافحنى ثم إذا به يضغط عليها ويحاول عصر أصابعى . وقد خيّل إليه أنه بذلك يثبت رجولته وجبروته ! لم يتبعنى مرة فيركب الترام حتى إذا ما نزلت تبعنى حتى أدخل باب منزلى . لم يدعنى يوماً لتناول العشاء أو الذهاب معه إلى السينما . . . لم يكن كغيره بل كان يختلف عن كل رجال العالم .

كان يمتاز عنهم . وقد أحسست بذلك تماماً وأنا أتلو رسالته .

ولعل أكبر أثر تركته تلك الرسالة فى روحى أنها وفرت علينا التردد والخجل الذى ينتاب الفترات الأولى من أمثال هذه العلاقات الغرامية . فقد أقبل كل منا فى اليوم التالى إلى الكلية كأننا تحاببنا منذ وقت طويل . . وكأننا أردنا فقط أن نخفيَ ذلك الحب عن زملائنا اتقاء لثرثرتهم

واعتدت أن أرى فاضلاً كل يوم . . . صباحاً فى المستشفى ومساء فى الخارج . . كان يحملنى أحياناً فى سيارته إلى ضاحية من ضواحى القاهرة لنتحدث دائماً عن الحب . . حبنا العجيب الذى ابتدأ ظهر يوم من أيام الصيف وأنا ألف حول عنقى وشاحاً أحمر لالتهاب فى حلقى من برد خفيف . . الوشاح الذى كان يصر فاضل على تشبيهه بأنه كخاتم كبير من اللهب كان يحيط بعنقى ويحرق كل من حولى !

وافتتح معرض ذلك العام . . عام ١٩٣٦ . وأخذت الجموع تتدفق نحو باب المعرض الكبير . واتفقت زميلاتى فى المستشفى على أن نتوجه معاً لزيارته كما فعلت طوائف أخرى من الطالبات . فترددت .. ومر فاضل إذ ذاك بخيالى وساءلت نفسى « أأملك أن أذهب إلى المعرض دون أن أستشيره ؟ »

وتسلط على شعور ملح بأننى لا أملك ذلك الحق . وأن هناك رجلاً يجب أن يستأذن فى السماح لى . . . هو فاضل !

فرجوت زميلاتى أن يمهلننى حتى اليوم التالى . وصاحت زميلتى صالحـــــة

— ما الذى دهاك ؟ إن مصر كلها قد زارت المعرض . إنك تبالغين كثيراً فى معارضة الناس والعناد معهم

وتضاحكت الباقيات . ساخرات . وهززت أنا رأسى « الناشفة » ولم أعبأ بهن فقد كنت قد صممت على أن أستشير فاضلاً

وفى تلك الليلة . آه يا سيدتى ..!! إننى أرتجف وأنا أذكر تلك الليلة .. بل إننى اعتدت بعدها أن أرتجف كلما ولّى النهار وبدأ الليل يرخى سدوله القاتمة . . . فى تلك الليلة ذهبت إلى منزل فاضل لأخبره بما اتفقت عليه زميلاتى

ولكننى لم أكد أبدأ بذكر المعرض حتى قطب جبينه . فسألته

— ماذا بك يا فاضل ؟ — فأجابنى وهو يتكلف الابتسام

— لا شىء

— كيف ؟ إننى أفهمك تماماً . فى صدرك شىء تريد أن تقوله لى

— أتريدين حقاً الذهاب إلى المعرض ؟

— أجل .

— إذاً اذهبى .

— وأنت ؟

— لا . لن أذهب

— لم ؟

— هكذا . لا أريد أن أذهب

— ولكن لم ؟

— لا أشعر برغبة فى رؤية هذا المعرض .

— يبدو عليك أنك لا توافق على أرى المعرض

— وهل لى الحق فى أن أمنعك !

واستطعت بسهولة أن أتبين معنى اللهجة الساخرة التى أضفاها على جملته الأخيرة . وفرحت لأنه أراد أن يبدى مشيئته فى ألا أذهب إلى المعرض . فدنوت منه ووضعت يدى على كتفه ثم رنوت طويلا إلى عينيه وقلت له فى لهجة تعمدت أن تنطق بكل حنانى .

— إذا لم يكن لك أنت الحق فى منعى من الذهاب إلى أى مكان فلمن يمكنُ أن يكون هذا الحق يا فاضل ؟

وعندئذ رفع رأسه التى كان قد أطرق بها إلى الأرض . ولمحت عينيه . . . عينى زوجك ياسيدتى . . . العينين الواسعتين اللتين لم أستطع يوماً ما أن أقاوم إرادتهما بعد النظر إليهما . . . كانت الدموع تلمع فيهما فعانقته وأخذت أغمر صدره بقبلاتى . . . لم أستطع أن أصل إلى وجهه ... إننى أقصر من فاضل . ولم أندم مرة على قصر قامتى لأننى كنت أخشى إذا ما طالت قامتى أن أحترق من اللهب الذى كانت تقذفه نظراته والإغراء الذى كان يبدو جلياً فى تقلصات شفتيه . . . ولكننى كنت أكره غيرى من النساء اللاتى تعلو قاماتهن عن قامتى . مثلك أنت يا سيدتي . لأننى — لسذاجتى — كان يخيّل إلى أن إحداهن ستكون أسرع باختطافه منه !

ولكننى فى تلك الليلة نسيت حقدى على أولئك النسوة . . . لأن

فاضلا حملني بين ذراعيه ثم وضعني على المقعد الطويل الذى كان خلف باب الشرفة العريضة المطلة على النيل من بعيد وأخذ يغمرنى بقبلاته . . . القبلات التى كنت أخشى من قبل أن أحترق بلهيبها والتى تحققت خشيتى منها ليلتئذ . . . !

كان الظلام إذ ذاك قد خيم على كل ما حولنا . وساد سكون رهيب على أثر مغادرة الجيران لدورهم وتوجههم جماعات لزيارة المعرض الذى كانت تبدو أنواره من بعيد . وانقشعت الغيوم التى كانت تحجب نجوم السماء ولمعت أضواء تلك النجوم على صفحة النيل الذى كان يجرى تحت قدمينا فبدت كأنها قطع نقودٍ فضية تبعثرت على بساط داكن فى ليلة عرس .

وسألنى فاضل وهو يغمر وجهى بأنفاسه .

— أكنتِ تودين الذهاب إلى المعرض لكى تكونى معرضة لأنظار الآلاف من الشبان الذى يحومون كالذباب حول زائراته ! إننى لا أود أن يقع بصر غيرى عليك وأنت فاتنة كالليلة . أحياناً يخطر لى خاطر شرير هو أن أسجنك فى البيت ثم أغلق عليك الباب بالمفتاح وأمضى .

فسألته وأنا أكاد أطير فرحاً .

— أتغار يا فاضل ؟

— لا يمكنك أن تتصورى إلى أى حد . إننى أوقن بأن الرجال أجمعين يحسدوننى لأنك معى و يتآمرون على اختطافك منى . إننى أحبك يا « زيزى »

إلى حد أنني لا أفكر — ما دمتِ الى جانبي — فى أى شىء آخر . ليذهب العالم كله الى المعرض فلن يجد رجل منهم هناك عشر المتعة التى أجدها فى النظر الى عينيك .

وسعدت بتلك الكلمات التى كانت أنغامها تشجى أذنى كأنها أنشودة شعرية جميلة من فم شاعر شاب مفتون .

ونسيتُ إذ ذاك كل شىء . نسيت ما كنت أعتز به فى ماضى حياتى من صلابة ... نسيت أننى فتاة مقبلة على العشرين ينتظرها مستقبل كانت ترجو أن يكون هانئاً سعيداً . نسيتُ ما كنت قد سمعته من والدتى وعمتى وخالتى و بنات عمى وقريباتى وما كنت قد قرأته من القصص وشاهدته على المسرح من المسرحيات وعلى لوحات السينما من « الأفلام » . نسيت كل شىء ولم أذكر إلا شيئا واحداً . . . أن أرضى فاضلا وأن أطيعه ولو ضحيت فى سبيله كل شىء .

ورضيت بالتضحية . . . التضحية الهائلة فى تلك الليلة التى عصفت بكيانى . واجتاحت عنادى القديم فتركته هشيما . . .

. . . .

. . . .

وانقضت أيام . . وأسابيع لم أنقطع فيها عن رؤية فاضل . . . وبدأت آثار تلك الليلة العاصفة تظهر . وصارحت فاضلا بكل شىء فاخبرنى فى صوت مرتجف بأنه أشرف من أن يقبل تلك التضحية بغير أن يجزينى

عنها أقل جزاء ممكن وهو أن يدعنى أحمل إسمه وأن يدع الطفل يحمل اسم أبيه بدلا من أن يتركه فى نذالة يحمل إسم طريق من طرقات القاهرة أو أزقتها !

ومرت أسابيع أخرى . وكررت عليه أننى مقبلة على فضيحة هائلة فصارحنى بأنه لا يستطيع أن يتزوجنى قبل أن يتخرج .

وصدقت لسذاجتى . وتحملت وحدى وزر التخلص من العار الذى انسقت إليه راضية . متأثرة بحبى لفاضل . ولـكن الثمن كان باهظاً فقد اضطررت أن انقطع عن المستشفى مدة طويلة ولم أستطع بعدئذ العودة إليها. وانتظرت على أحر من الجمر اليوم الذى يقبل فيه فاضل ليفى بوعده . انتظرت طويلا ولـكنه لم يحضر إلى اليوم ! .

ولما علمت أنه تزوج . تزوجك أنت . لم أفعل شيئاً . ثقى يا سيدتى أننى لم أحقد عليك و إلا لمنعت ذلك الزواج وقد كنت أستطيع أن أمنعه فى أقل من لمح البصر . . كان هناك شهود كثيرون . كانت هناك رسالته التى أرسلها إلى والتى نقلت نصها إليك هنا ورفعنى فيها إلى مرتبة الالهة التى تحق عبادتها . كانت هناك زميلتى صالحة التى اضطررت أن أعترف لها بكل شىء والتى أعانتنى على التخلص من عارى والتى كانت تتصل به أثناء تلك الفترة الرهيبة لتنقل إليه أخبارى . ولـكننى لم أرض قط أن أرغمه أرغاما على أن يفى بوعده كرجل شريف !

لقد قبل على رجولته أن يكون نذلا وهوى إلى الدرك الذى يتمرغ فى

أوحاله ملايين الرجال غيره . بعد أن كنت أظن أنه يمتاز عنهم جميعاً ...
فقلت لنفسي وأنا أضحك — أقسم لك أنني كنت أضحك — «نذل آخر ! »

كانت لى بقية من كرامة أعتز بها رغم كل ما حدث لى . بقيت فى ثنايا رأسى التى كانت قد فتتها عاصفة تلك الليلة الهائلة فأبيت أن أسعى إليه . . أبيت أن أرغمه على أن يكون رجلا . وأبيت أن أثأر لحياتى الضائعة المهدوره خشية أن يظن إننى حانقة غضبى لأنه غدربى . . !

وتركته يمضى فى سبيله مستريحاً كأن شيئاً لم يحدث . فتم زواجه بك !

إننى لا أمن عليك ياسيدتى . لا تظنى أننى أريد أن أقول إننى لو لا سكوتى ما تم زواجك بفاضل . .

لا . . . وأقسم لك أن هـذه الرسالة ما كانت لتكتب لولا ما حدث منه فى المعرض الليلة . إننى أردت فقط أن أثبت أن البقية الباقية من رأسى المهشمة قد استعادت صلابتها . . .

والآن لعلك تتساءلين « ما الذى حدث حتى تثورى هذه الثورة بعد أن سكتِّ ستة أعوام كاملة ؟ » .

وأنا أجيبك ياسيدتى بأننى لم أكن أنتظر شيئاً قط من فاضل بعد أن هجرنى وتزوج . . . لم أره قط منذ أعلنت خطوبته عليك . . لقد غادرت القاهرة إلى طنطا وبقيت فيها أكافح لأعيش — لا يعنيك كيف كان

عيشى — ولكننى لمحته مقبلاً وقد تعلقتِ بذراعه نخفق قلبى خفقاناً شديداً وتثلجت يداى . وتبينت أننى لم أكره فاضلاً إلى الأبد . خيل إلىَّ أن النذالة التى اقترفها فى حقى والتى نسف بها حياتى قد خفف من قسوتها أن ملايين الرجال غيره قد اقترفوها ! ونسيتها أو كدت ... وتهلّل وجهى فرحاً عند ما رأيته قد امتلأ جسمه . واستدار وجهه النحيف . و بدا رجلاً . وشاعت فى وجهى ابتسامة عريضة . وكان ابنه ... ابنكما الصغير قد اقترب منى وأنا واقفة أمام الواجهة الزجاجية أشاهد لعب الأطفال فمددت يدى لأمر بها على شعره الذهبى اللامع الجميل الذى يشبه شعر أبيه والذى طالما دفنت أصابعى فيه أيام غرامنا منذ ستة أعوام ولكننى دهشت عند ما رأيت فاضلا ينتزع الطفل منى ويجذبه مبتعداً عنى دون أن يحيينى حتى بابتسامة لا تلحظينها !

لقد ارتجف جسمى إذ ذاك ... ألست محقة يا سيدتى !؟ لم أطمع من الرجل الذى وهبته كل شىء ... والذى ضحيت لإرضائه ذات ليلة عاصفة من ليالى غرامنا بكل شىء ... فى أكثر من أن يشعرنى بأنه لم ينسنى ... لقد كان وجهه قريباً من وجهى وكانت عيناه تنظران إلىّ وأنا أبتسم متهللة الوجه مشرقة القسمات كأن شيئاً لم يحدث . ولكنه أشاح بوجهه عنى وجذب الطفل الذى كان يمكن أن أكون أماً له ... والذى لا أريد — كيلا أغضبك — أن أقول بأننى أحق من أية امرأة أخرى بأن أكون أمه !

إن فاضلاً قد أبى فى مثل هذه الليلة منذ ستة أعوام أن يصحبنى إلى المعرض السابق كيلا يعرضنى لأنظار الشبان المزدحمين لمغازلة الفتيات المترددات على المعرض . . . وقضينا معاً تلك الليلة العاصفة التى نسفت كيانى وحطمت حياتى فلما قابلته الليلة — وبعد ستة أعوام شقيتها بسببه — لم يرض حتى بأن يحيينى بابتسامة وتركنى وسط أولئك الآلاف من الشبان الذين يرون فى كل إمرأة تسير وحدها غنيمة باردة !

لعلك تذعرين عند ما اعترف لك بأننى لا زلت أحبه . . لم أهجم عليه أمام جمهور المعرض ولم أمزق وجهه بأظافرى ولم أصفعه بذكرى ماضيه معى . . . لم أفعل شيئاً من ذلك لأننى — كما قلت لك — لازلت أحبه . ولكننى كنت أود أن يكون ولو مرة أخيرة نبيلاً معى . . . إننى امرأة ! وأنت الأخرى امرأة . . إننا امرأتان نحب رجلاً واحداً . فأنا واثقة أنك تحبينه لأن فاضلاً يستطيع أن يلين أشد الرؤوس صلابة وعناداً وأنا أعلم — مرة أخرى كامرأة أحبت ولا زالت تشقى بذلك الحب — أنك تفضلين لزوجك أن يقف موقفاً أنبل وأكثر سمواً .

عزيزه »

يناير سنة ١٩٤٢

من مذكرات المؤلف

٢٥ يناير سنة ١٩٤٢

جاءتني هذه الرسالة ومعها الكلمة الآتية :

« كان يخيل إلىّ عند ما بدأت كتابة هذه الرسالة أنني سأرسلها إلا من قصدت الكتابة إليها . ولكنني بعد أن انتهيت منها ترددت . لقد احتفظت بكبريائي طيلة ستة أعوام شقية فلأحتفظ بها دائماً . ولذا رأيت أن أبعث بها إليك على أن تضع لها أسماء أخرى تخفي معالم هذه القصة الدامية . »

وقد فعلت .


قبلة ذات ليلة

قبـــلة ذات ليـــلة

رسالة من شاعر الى صديقة قديمة

« سيدتى

لعلك تدهشين إذ ترين هذه الرسالة التى أبعث بها إليك بعد أن انقطع ما كان بيننا وانقضى على هذا الانقطاع عامان — ما كان بيننا — هل كان هناك حقاً بيننا . بينى وبينك يا ريرى شىء كالذى يكون عادة بين شابين عاشقين ؟ أقسم لكِ أننى حائر . فأنا أعترف بأننى أحسست نحوك بعاطفة غريبة . لست أدرى إذا كانت حباً . أو إعجاباً . أو رغبة طارئة عابرة . وأرجو أن تعترفى أنتِ أيضاً من جانبك بغرابة تلك العاطفة التى تربطنى بك أو تربطك بى . . لقد ارتبطنا يا ريرى . فترة ما . رغم كل تلك الثورات التى كنت أفتعلها أنا أو تفتعلينها أنت ـ ارتبطنا عامين وافترقنا منذ عامين وكان يخيل إلى فى آخر مرة تشاجرنا فيها أننى لن أعود إليك . فقد كنا نتشاجر كثيراً ولكن الشجار الأخير كان شجاراً عاصفاً . أتذكرين ؟ كنت قد تحدثت إلى بالتليفون فلم أستقبلك ببضع قبّلات كما اعتدت أن أفعل . بل قلت فى لهجة مؤدبة رشيقة كأننى أتحدث إلى سيدة « غريبة »

— أفندم ! كيف حالكم ـــ وفهمتِ أنت تواً أننى لست وحدى فى المكتب فسألتنى

— أمعك أحد ؟ — فأجبتك

— تقريباً ! — وعندئذ أعدت « سماعتك » إلى مكانها وأنت تقولين :

— إذاً اطلبنى بعد أن يخرجوا — ولكننى قلت لك

— لا . أطلبونى أنتم

— متى ؟

— بعد ربع ساعة

وانقضى ربع ساعة . ودق التليفون ففهمت أنك أنت المتحدثة وعندئذ خيّل إلى أننى أستطيع أن أكذب عليك ولا أحرج نفسى . فطلبت من أحد الجالسين معى فى المكتب أن يتناول السماعة ويجيبك بأن « الأستاذ خرج منذ لحظة وسوف يرجع بعد ساعة » . لست أدرى إلى الآن ما الذى دعانى إلى أن أفعل ذلك ؟ ربما كانت هناك ناحية مزهوة طفلة فى صدر كل شاب فى سنى وقتئذ توحى إليه بأن يبدو أمام أصدقائه وزملائه بأنه مرغوب فيه من أكبر عدد من الفتيات وبأن يدل ويتيه فينكر وجوده فى المكتب ويتهرب من ملاحقتهن له ! ولكننى على أى حال لم أكن أتصور أنك فهمت بأننى لا أزال موجوداً فى المكتب عند ما أجابك صديقى ورد عليك بما لقنته له . . وانقضت ساعة ولم تتكلمى . وأبيت أنا أن أطلبك وانقضى اليوم التالى أيضاً دون أن نتحادث وانقضت بعد ثلاثة أيام ساد الصمت فيها علينا . ثم تكلمت أنا . فلم تكدى تسمعين صوتى حتى سألتنى فى سذاجة ظاهرة

— من تريد يافندم ؟ — فسألتك ضاحكاً

— أمعكِ أحد ؟

— أى رقم تطلب ؟

— رقمك أنت .

— الرقم غلط !

ثم انقطع الحديث فأعدت طلبك ولكن جرس التليفون ظل يدق مدة طويلة دون أن يجيبنى أحد . فلما يئست أعدت سماعتى إلى مكانها . وصوت الدق الخائب لا يزال يرن فى أذنى كأنه نداء راعٍ شاب على شاة ضالة فى صحراء مترامية الأطراف . . .

ذلك هو يا ريرى شجارنا الأخير كما تذكرين . لم يتقدم بعده أحدنا إلى الآخر بخطوة . . أبت كبريائى أن أتحدث إليك وأبيتِ أنت الأخرى أن تتحدثى . عامان . لم أعد أسمع عنك فيهما شيئاً . لم أسع قط إلى أن أعرف شيئاً عنك . كنت أرجو فقط من صميم قلبى أن تسعدى فى حياتك لأننى أعلم أنك لم توفقى فى زواجك . ولقد مررت ثلاث أو أربع مرات على منزلك بحدائق القبة فكان المنزل مغلقاً فى كل مرة . لا دليل على الحياة فيه وكنت أقنع بالمرور من بعيد بسيارتى وأتعمد ألا تحدث السيارة صوتاً حتى لا أزعجك فى عزلتك الهادئة بتلك الضاحية . ثم أشيّع المنزل بنظرة طويلة وأطلق للسيارة أقصى سرعتها عائداً إلى القاهرة . دون أن تحسى بأننى مررت !

إلى أن عدت من الجريدة قبل ظهر اليوم فوجدت التليفون يدق دقاته المزعجة فلما أجبت سمعت صوتاً يسألنى .

— هل صدر كتاب « صحراء الحب » ؟

وتذكرت أن جريدة « الجيل الجديد » التى أعمل بها قد أعلنت عن قرب صدور كتاب بذلك العنوان يحتوى على مجموعة من شعر طائفة من شعرائنا الشبان أنا منهم فأجبتك .

— لا . لم يصدر بعد

— أرجوك أن تخبرنى . متى سوف يصدر ؟

— من أنت ؟

— قارئة أستفسر — وتحققت إذ ذاك أن الصوت الذى كان يتحدث إلى صوت ألفته من قبل . مع أن عامين طويلين قد انقضيا على آخر مرة سمعته فيها . وعندئذ قلت لك فى لهفة حنون

— إننى أعرفك « ريرى » !

— من أنت ؟

— حلمى . أنا حلمى يا ريرى

— إنك مخطىء يا أستاذ . لستُ تلك التى تظنها تتحدث اليك

— لم تنكرين ؟

فتهدج صوتك إذ ذاك وقلتِ فى اضطراب ظاهر

— لا . لست أنا ، إننى سيدة أخرى

فضحكت ضحكة فاترة وقلت

— لقد (أصبحتِ) سيدة أخرى !

فقاطعتنى قائلة وأنت تفرين

— قلت لك إننى أخرى — ثم انقطع الحديث مرة أخرى .

ألا تقرينني على أن العلاقة التى كانت بيننا علاقة غريبة وأنها ظلت محتفظة بغرابتها حتى بعد انقطاعها بعامين ؟ اوه . ! إننى أعود بخيالى الآن إلى ذكرى اليوم الذى سمعتك فيه للمرة الأولى . واليوم الذى قبلتك فيه للمرة الأولى والأخيرة !

ليس من السهل أن أنسى ذلك يا « ريرى » . أنت تذكرين ذلك كله ولستِ فى حاجة الى من يعيده عليك . ولكننى أحس براحة وأنا أذكره وأكرر ذكراه . .

كانت ليلة من ليالى الصيف . . وكنت قد تأخرت فى مكتبى لأتم قراءة مسرحية جديدة لبرنشتين كنت أعتزم تلخيصها . لا زلت أذكر عنوانها أيضاً الى اليوم . « السم » . وقد راقنى من حوار المؤلف الكبير هذا الجزء فأخذت أنقله الى العربية

(فرانسواز — أيها الشرير المعبود! أحبك . اعطنى سيجارة . سأحكى لك حكاية . .

جابرييل « يقدم لها سيجارته » — خذى نفسين « تدخن » ماهى حكايتك؟)

ودق إذ ذاك جرس التليفون . وارتعدت وأنا أتلو هذه السطور التى كنت

قد ترجمتها عندما نظرت الى الساعة فوجدتها قد جاوزت العاشرة .. العاشرة مساء . وأجبت فسمعت صوتك وأنت تسألين

— هل الاستاذ موجود ؟ — ودهشت من تلك المجهولة التى تسأل عنى فى تلك الساعة من الليل وقلت :

— من يطلبه ؟

— واحده

— ماذا تريدين ؟

— لاشىء . كنت أريد أن أسأله فقط عما اذا كانت إحدى قارئاته تستطيع أن ترسل بضعة أشعار لنشرها فى مجلة « الجيل الجديد »

وكنت إذ ذاك أرغب رغبة قوية فى أن أنتهى من تلخيص مسرحية برنشتين فقلت لك مسرعا

— أجل يا سيدتى . كل القراء يستطيعون أن يرسلوا ما يشاؤون

وانتهى حديثنا ليلتئذ . ولكننى لم أكد أعيد السماعة الى مكانها حتى ندمت .

كان صوتك غريباً . يمتاز برنين موسيقى حنون . ظل يغمر الغرفة مدة طويلة بعد أن انقطع الحديث . وحاولت الكتابة بعدئذ فلم أستطع . وفسرت ذلك بأننى مرهق فغادرت المكتب وذهبت الى مطعم « الريتز » كعادتى لتناول العشاء وكانت تعزف فيه جوقة موسيقية ولكن كل ما عزفته ليلتئذ كان « نشازاً » فى أذنى لأن رنين صوتك كان يلاحقنى .

ولم تنقض بضعة أيام حتى عرفت كل شىء عنك . عرفت مأساة زواجك. وصارحتِنى بدقائق حياتك كما صارحتُك بدقائق حياتى .. وأردت أن أراك فأفهمتنى صعوبة ذلك ولما ألححت قبلتِ على أن نلتقى برهة خاطفة فى ذلك المخزن من المخازن التجارية بشارع فؤاد الأول . وذهبت للقياك هناك . كنت تمسكين فى يدك تلك الزهرة من زهرات «الكرنيرانتيم» . وكنت تنتظرينني عند أعلى السلم تطلين بين برهة وأخرى لتريننى عند صعودى . واتجهت اليك تواً كأننى أعرفك .. ومددت يدى أحييك ثم ضغطت عليها وتبادلنا بضع كلمات حتى تبينا أن البائعات والباعة قد بدأوا يوجهون النظر الينا فودعتك وانصرفت . .

وأخذنا بعد ذلك نتحادث كل يوم فأخبرك بما فعلته فى عملى أثناء النهار وسهرتى أثناء الليل وتخبريننى أنتِ بما مر بك أثناء اليوم كله .

وعدلت عن أن أطلب اليك أن أراك مرة أخرى . .

الى أن كانت تلك الليلة !

لست أدرى لم أرتجف عندما أذكرها . . كنت يومئذ مدعواً للاشتراك فى إحدى حفلات التكريم التى أقيمت للاحتفال بملكة الجمال التركية كريمان خالص . ولما انتهيت منها وعدت الى المنزل خطرتِ أنت بخيالى.. لم يكن هناك شك فى أنك أقل جمالا من تلك الفتاة التركية ولكننى مع ذلك لم أكن أتمنى أن أفوز بها كما كنت أتمنى أن أفوز بك .

ولم أكد أصل الى المنزل حتى رأيتك تتحدثين الى وتعرضين على أن أذهب لأراك فى منزلك . وذعرت لذلك العرض الجرىء ولكنك ألححت وأنت تقولين .

— لا تضع الوقت . تعال حالا

وترددت ليلتئذ قليلا ولكنى لم أشعر إلا وأنا أقفز الى سيارتى وأسرع بها فى طريق حدائق القبة !

وصعدت ذلك الدرج الرخامى العريض الذى كنت تنتظرينني عند آخره . وتلقيتنى مرحبة فى وجل ظاهر . ثم ساعدتنى على خلع معطفى وقدتنى الى غرفة الجلوس . ما أغرب تلك الذكرى !

كنت قادماً — كما قلت لك — من حفلة كانت كريمان خالص لا تبعد فيها عنى بضع خطوات ولكننى لما شعرت بك الى جانبى أحسست بأنك أكثر فتنة وأروع جمالا . وأشد اغراء وأعمق تأثيراً . وسألتِنى وأنت تتلفتين حولك خائفة

— لقد ألححت عليك فى المجىء لأننى كنت إذ ذاك ضائعة الرشد . ولكننى الآن أرتعد خوفاً . كان يجب أن ترفض رجائى . لم أطعتنى وحضرت هكذا على عجل ؟

— لأننى أريدك

وعندئذ لمعت عيناك ببريق غريب وقلتِ فى تلعثم شديد

— أنا . . . لرجل آخر

وشعرت إذ ذاك بخيبة هائلة تدمى قلبي فأطرقت الى الأرض المفروشة ببساط فاخر. وكانت سيجارتى الأمريكية إذ ذاك ملقاة تحترق فى بطء على المائدة الصغيرة التى أمامنا فتناولتها أنت وجذبت منها « نفسين »

وتذكرت إذ ذاك مسرحية برنشتين « السم » التى كنت أقرأها ليلة سمعتك تتحدثين إلى للمرة الأولى. لقد كان المؤلف الكبير يقصد بالسم تلك العاطفة التى تتغلغل تحت الجلد وتستقر فى الدم فلا يمكن تحريره منها. وخيل إلى أننى لن أستطيع أن أعيش بدونك.

وطال صمتنا. ونسينا أننا نعيش برهة آثمة لا حق لنا فيها.

ودقت الساعة الكبيرة المعلقة فى الصالون إذ ذاك دقاتها التسع فارتجف جسمك الشاب الذى كان ينكشف عنه ثوبك المذهب اللامع. وسألتنى وأنت تقتربين منى وتضعين وسادة من ريش النعام خلفى لأستريح كأنك كنت تعلمين أننى مرهق.

— ماذا بك يا حلمى ؟

وأطلت النظر إلى عينيك الواسعتين ذات الأهداب الطوية الملتوية وقلت فى همس.

— أريد أن أعيش إلى جانبك مرة كل أسبوع. مرة كل شهر. ساعة. أو نصف ساعة. أراك. وأتحدث إليك. وأشم عبيرك ثم أعود من حيث أتيت. لا أطلب شيئاً أكثر من ذلك. تعالى إقرأي معى صفحة من كتاب. قطعة شعر. حواراً فى قصة. أو اسمعى معى قطعة

موسيقى . أو أنصتى معى إلى صفير ريح فى طريق خالٍ من الناس أجمعين. أو شاهدى معى تجمع قطرات المطر على نافذة غرفتى . ثم عودى . عودى مسرعة إلى بيتك . . .

وعندئذ تنهدتِ طويلا كأنك تزيحين عن صدرك عبئاً هائلا . وأرادت شفتاك أن تقولا كلمة وقفت فلم تنطق بها . كلمة خيل إلى أنها « يا ريت ! » وترنح صدرك الشاب ثم ألقيت برأسك على كتفى وارتجفت شفتاك كأنهما جفنا عين تجهش بالبكاء . وأدنيت شفتى لأجفف العبرة التى خيل إلى أنها ستسيل من شفتيك . وعشنا فى قبلة طويلة . ولـكننى فجأة رأيتك تتخلصين منى وأنت تشهقين وقد بان الذعر على وجهك .

— ما ذا فعلت يا حلمى ؟ — فأجبتك وأنا أطيل النظر إلى شفتيك .

— لا شىء .

وعبس وجهك فى سذاجة طفلة ثم قلت وأنت تطرقين إلى الأرض .

— إنك شرير . شرير جداً .

وعدت إلى منزلى ليلتئذ دون أن أحاول التخلص من نشوة تلك القبلة . وحدث بعد ذلك أن تناقشنا مناقشة عاصفة فاختلفنا بضعة أيام ثم تصالحنا لنعود إلى التشاجر مرة أخرى . وكنت فى كل مرة تتشاجرين تحاولين ايهامى بأنك لو تخلصت من حياتك الراهنة فانك معتزمة أن تقترنى بقريب لك تربطه بك عاطفة قديمة منذ الطفولة . وكنت أعرف أنك تريدين

بذلك أن تثيريني . ولعلك تذكرين يوم سألتني عن رأيي لو أقدمتِ على هذا الزواج فقلت لك في ضحكة ساخرة .

— سميره هانم تعشق !

لم أكن أعبأ بذلك لأنني كنت إذ ذاك في مستهل حياتي الأدبية . وكنت أعب من حياة القاهرة الليلية بما يكفي شابا في سني وقتئذ . فلم تكوني المرأة الوحيدة التي أعرفها وأتحدث إليها . بل كانت هناك كثيرات غيرك ألتقي بهن وأحادثهن وأضحك معهن وأقضي سهراتي حمراء حتى الصباح . ولعل ذلك هو الذي أغراني على أن أغلو في العناد عند ما تشاجرنا للمرة الأخيرة . لا أخفي عنك يا ربري أن حياتي تطورت بعد أن انقطعت علاقتنا تطوراً آخر . قدمت إلى الكثيرات وصادفني نجاح لم أكن أحلم به يوم أن عرفتك معرفة ترجع أولا وقبل كل شيء إلى اعجابك وأنت في الثانية والعشرين بي وأنا في الخامسة والعشرين .. كان إعجابا طفلا ولا شك. لم تكن جهودي الشعرية إذ ذاك تعدو محاولات أولى نحو كتابة القصيدة المسرحية. ولكنني أيضاً لا أخفي عنك أن ذكرى تلك القبلة . . قبلتنا الأولى والأخيرة ظلت محفورة في خيالي فلم أوفق قط إلى التحرر منها . . إنني منذ عامين لم ألتق بك . لم أرك حتى من بعيد في ملهى أو محفل عام ولم أسمع صوتك . . ولكنني كنت أحس كلما قبلت إمرأة أخرى بأن هناك شيئاً ينقص قبلاتي الأخيرة ويفقدها الكثير من فتنتها وروعتها . إنني أكتب إليك الآن بعد أن أعدت قراءة مسرحية برنشين « السم » . . عجبا ! أيمكن أن تكون قبلة واحدة لكي تسمم حياتي إلى الأبد ؟ !

إننى موقن أنك أنتِ الأخرى مسممة بتلك القبلة . . أوه ! لا تتكلفى الرزانة يا صديقتى . أربعة أعوام طوال تكفى ولا شك لكى تحررك من كبرياء الطفلة الساذجة التى كنتها يوم بدأت علاقتنا القديمة . .

أصارحك هنا بأننى لا أود قط أن أعود إلى تلك العلاقة ولكننى أريد أن تعترفى بأن قبلة ذات ليلة من ليالى عاطفتنا قد كفت لكى تسمم حياتينا . لا يهم إذا كنت ستتابعين حياتك المتشابهة و إذا كنت أنا سأتابع هذه الحياة الصاخبة المرهقة بين عملى الأدبى فى الصباح وتنقلاتى فى « علب الليل » بعد إنتهاء ذلك العمل . . ليكن . لنفترق . ولكن ثقى مرة أخرى بأن شيئاً واحداً سيذكر كلاً منا الآخر ذلك هو . . ماذا ؟ نعم هو . . سم تلك القبلة .

« حلمى جعفر »

شارع يابغا بشبرا فى اكتوبر سنة ١٩٣٩